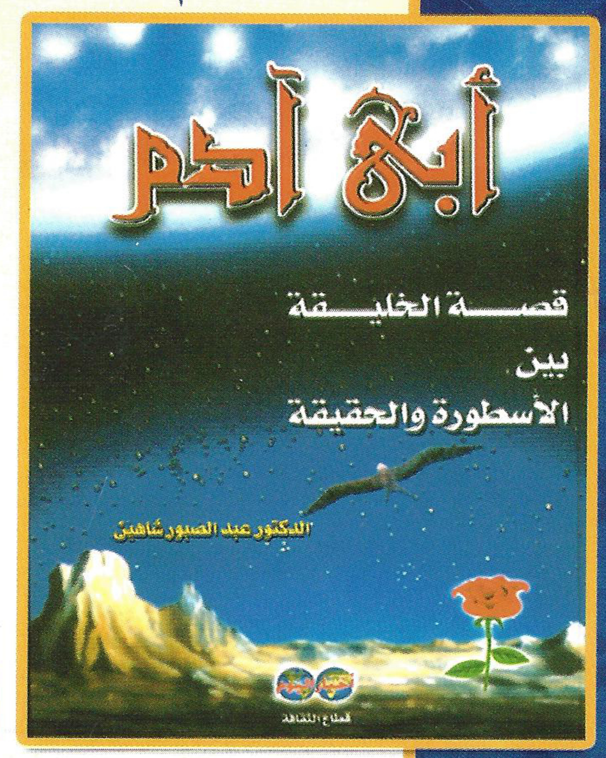
آدم .. أبو البشر
حقيقة .. لا أسطورة

ردٌّ على كتاب

أبي آدم قصة الخليقة بين الأسطورة والحقيقة

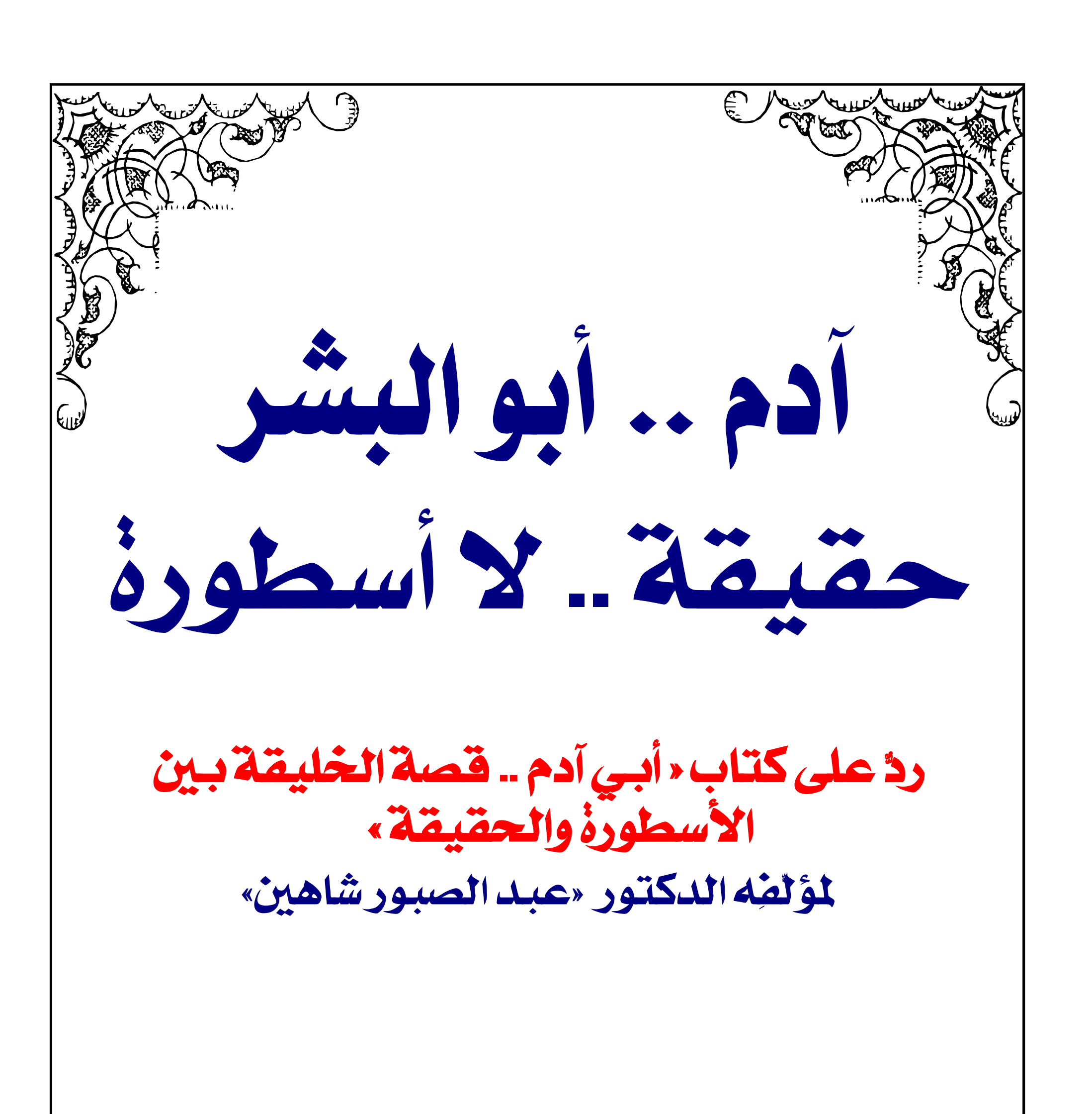


تأليف

أ. د/ إسماعيل علي محمد

أستاذ الدعوة والثقافة الإسلامية
في كلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة
جامعة الأزهر





آدم .. أبو البشر حقيقة .. لا أسطورة

ردٌّ على كتاب «أبي آدم .. قصة الخليقة بين الأسطورة والحقيقة»

لمؤلِّفه الدكتور «عبد الصبور شاهين»

د. إسماعيل علي محمد

أستاذ ورئيس قسم الدعوة والثقافة الإسلامية

في كلية أصول الدين والدعوة

جامعة الأزهر - المنصورة



الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م
الطبعة الثانية ١٤٣٦هـ ٢٠١٥م

بطاقة الفهرسة
محمد، إسماعيل علي.
آدم .. أبو البشر، حقيقة .. لا أسطورة.
رد على كتاب "أبي آدم" لمؤلفه د. عبد الصبور شاهين.
تأليف أ.د/ إسماعيل علي محمد. ط ٢ .
دار الكلمة للنشر والتوزيع ١٤٣٦ هـ ٢٠١٥م
رقـــم الإيداع : ٢٠٢٨٧ / ٢٠٠٦
الترقيم الدولي : ١١ ـ ٢٤٥ ـ ٣١١ ـ ٩٧٧

دار الكلمة للنشر والتوزيع ـ القاهرة
القاهرة . محمول : ٠١٠٩٧٠٧٤٩٥
mmaggour@hotmail.comE-mail:
E-mail:daralkalema_pdp@hotmail.com
www.facebook.com/DarAlkalema





﴿ مَآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا
كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾

[سورة الكهف]

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين سيدنا محمد ﷺ، وعلى آله وصحبه والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .. وبعد:

فإنّ مِن شأن الإنسان العاقل، فضلا عن المسلم العالِم أن لا يشتغل إلا بالنافع من الأعمال، الذي يعود بالخير عليه وعلى الحياة والأحياء، وأن يتجافَى عن تضييع وقتِه وجهده، وكذا وقتِ الآخرين وجهدِهم في عمل يضرّ، أو على أحسن تقدير: لا يضرّ ولا ينفع ..

وهذا مبدأٌ عامٌّ في جميع الأعمال ..

ويتفرع عن هذا المبدأ في مجال العلم والبحث أن يَرْبأ العلماء والباحثون بأنفسهم، ويضِنُّوا بأوقاتهم عن الخوض في مسألة أو قضية لا ينبني عليها عمل، ولا يُفيدُ الناسُ مِن ورائها نفعاً في أمور معاشهم أو معادهم.

قال الإمام "الشاطبيُّ" ــ رحمه الله ــ: "كلُّ مسألة لا ينبني عليها عمل فالخوض فيها خوضٌ فيما لم يَدُلّ على استحسانه دليل شرعيّ، وأعني بالعمل: عملَ القلب وعملَ الجوارح مِن حيث هو مطلوب شرعا" [1].

"فإذاً قَطْعُ الزمان فيما لا يُجْنِي ثمرةً في الدارين، مع تعطيل ما

---

1 ـ الموافقات في أصول الشريعة، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي ١/ ٤٢، دار المعرفة – بيروت، ط الثالثة ١٤١٧هـ ١٩٩٧م.

يُجْنِي الثمرةَ؛ مِن فِعْل ما لا ينبغي" [٢].

على هذا النهج، وفي ضوء هذا الفهم سار أسلافنا رضوان الله عليهم، فحلّقوا في سماء الحضارة والرقيّ، وتسنّموا ذُرَى المجد، وكانوا على هُدىً واستقامةٍ في شئونهم المعاشيّة والمعاديّة.

ثم تطاول العُمُر، وتباعد الزمن، حتى خَلَفَت خُلوفٌ تنكّبت نَهْجَ أسلافِها القويم، وشغلتْ أنفُسَها بكثيرٍ مما لا ينبغي الاشتغال به ولا ينبني عليه عمل، ولا يترتب عليه نفع..

بينما تلقّف الغرب الراية، ولم يضيع وقتا ولا جهدا في غير عمل نافع، أو نشاط غير بنّاء ولا مُثمر، فتبدّلت الحال غير الحال، وتقدّم هو، وتخلّفنا نحن المسلمين، وازدادت الهُوّة بيننا وبينه، ولا يزال يتقدم، ولا نزال نراوح مكاننا !!

وبينما تحتاج الأمة — في أيامنا هذه خاصة — إلى جهودِ كل أبنائها — لا سيما العلماء والدعاة — للعمل جنبا إلى جنب من أجل النهوض والتقدم، والخروج من المأزق الخانق الذي أَلَمَّ بالأمة؛ إذْ طلع علينا الأستاذ الدكتور "عبد الصبور شاهين"، أستاذ علم اللغة بكلية دار العلوم — وهو رجلٌ عرفناه طيلة السنين الماضية من الدعاة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن — بكتاب أسماه: (أبي آدم .. قصة الخليقة بين الأسطورة والحقيقة)، شغل فيه نفسَه، وشغل الناسَ معه بمحاولة إثباتِ فكرةٍ هي أقرب إلى خيال الشعراء منها إلى نظريات العلماء، فضلا عن أن تُعدّ من حقائق الشرع، ومحكَمات الدِّين.

---

2 ـ السابق ١/ ٤٦.

حيث زعم فيه أن هناك فرقا بين (البَشَر) و (الإنسان)!!

وأنَّ (البَشَر) ما هم إلا أجيالٌ سابقة على الإنسان، خُلقوا من طين، ثم أَخضَعهم اللهُ للتسوية والتعديل لملايين السنين، حتى إذا بلغوا المستوى المطلوب من الترقِّي والتعديل، وكان آخرُ جيل منهم؛ وُلد (آدم) مِن أبٍ وأمٍّ منهم، وكذلك (حواء)، وعند هذا الحـــد انتهت المرحلة البشرية، بأن أباد الله ــ تعالى ــ ما تبقّى منهم.

وابتدأت المرحلة الإنسانية بـــ (آدم) و (حواء)، فكان آدم (أبا الإنسان) وليس (أبا البشر) !!

وآدم لم يُخلق من طين، بل جاء من أبوين (بشريين) !!

فـــ (البَشَرُ) ــ في تصوِّره ــ كانوا بمثابة مرحلة تحضيرية، أو مشروعا إلهيًّا لخلق الإنسان، الذي كـــان (آدمُ) و (حـــواءُ) طليعتَه ... إلى آخر ما ستكشف عنه هذه الدراسة من خيالٍ واسعٍ سوّد به صاحبُ كتاب "أبي آدم" صفحات كتابه !!

أما المنهجُ الذي اتبعه الدكتور "شـــاهين" في إثبـــات أفكـــارِه وتصوّراتِه فكان مِن أبرزِ معالِمه:

أ ــ تقديمُ العقل على النقل، والتعسف في إخضاع النـــصوص لعقلِه وهواه، وليّ أعناقها لإثبات فكرته التي اعتقدها مقدَّما.

ب ــ التأويلُ الفاسدُ لآيات القرآن الكريم.

ج ــ تجاهُلُ ما لم يستطع تأويلَه من الآياتِ التي تهدم فكرته.

د ــ ردُّ الأحاديثِ الصحيحةِ التي تنفي تصوراتِه.

هـــ ــ التلاعبُ بقواعد اللغة العربية.

و ــ الرجوع إلى مراجع غير معتمدة ولا موثوقـــة في الموضـــوع

محلِّ الدراسة، وإيهام القارئ أنها مصادر أصيلة، ما يُعـــدُّ ـــ مِـــن وجهة نظرنا ـــ خدشا في أمانته العلمية.

ز ـــ الخروجُ على إجماع الأمَّةِ فيما فهمَتْه مِن دين اللهِ تعــالى، منذ عصرِ النّبيِّ ﷺ حتى يوم الناس هذا.

ولا غرْو أنْ خلص من خلال هذا المنهج المجافي لقواعد البحثِ العلميِّ النزيهِ إلى إصدار أحكامٍ خاطئة، بغير علمٍ ولا تَثَبُّت.

وكان أنْ طفح الكتاب ـــ فيما أرى ـــ بالخيال والمجازفة.

وقد حرَصْتُ كلَّ الحرص على التزام المنهج العلميِّ في ردِّي على ما تضمّنه الكتاب مِن آراء وتصوّرات خالف فيها المؤلِّف ثوابت القرآن والسنة، وما أجمعت عليه الأمة، فالتزمْـــتُ الموضـــوعية والأمانـــة العلمية، والرجوعَ إلى المصادر المعتمدة لدى أهل العلم، وإثباتَ نَـــصِّ كلامه فيما أنْسبُه إليه مِن آراء، مِن غير تحيّزٍ إلا لما أعتقـــد أنـــه الحق، في ضوء الأدلة والبراهين.

وإذا كان الأستاذ الدكتور "عبد الصبور شاهين" حبيبا إلينـــا، ولا ننكر جهودَه المشكورةَ في مجالِ العِلْم والدعوةِ الإسلامية، ووقوفَه في وجْهِ المناوئين لها من العلمانيين وأضرابهم؛ فإننا ننتقد فكرتَـــه التي ضمَّنها كتابَه، ونخالفه فيها بالحجة والبرهان، مِن منطلق أنّ الحقَّ أحبُّ إلينا منه، مع خالِص الدعاء لنا وله بالهداية والتوفيق إلى ما يُرضِي الله تعالى.

وأما كتاب "أبي آدم"؛ فقد أصدره مؤلِّفُه الدكتور "عبد الصبور شاهين" أولَ مرّةٍ في عام ١٩٩٨م، وقد ردّ عليه في العام التالي مباشرة الأستاذ الدكتور "عبد العظيم المطعني" بكتابٍ أسماه (أبي آدم ..

قصة الخليقة بين الخيال الجامح والتأويل المرفوض)، ثم أخـــذت المناقشات تُثار حول الكتاب.

بل إنّ هناك مَن قاضَى مؤلِّفَه الدكتور "عبد الصبور شاهين"، كما عُرِض الكتاب على "مجمع البحوث الإسلامية" بالأزهر، وشَكَّل "المجمع" لجنةً للنظر في الكتاب، مِن أجْل هدفٍ مُحَدَّد؛ وهو بيان ما إذا كان المؤلِّف قد تجاوز الحدَّ في تأويلاتـــه لـــبعض النـــصوص القرآنية تجاوزاً يُخالف به ثوابت العقيدة الإسلامية، أو يتناقض مع ما هو معلومٌ من الدين بالضرورة، وقد انتهت اللجنة إلى أنَّ المؤلِّف لم يقع في مثل تلك المخالفة.

ولقد اعتبر مؤلِّفُ كتابِ «أبي آدم» هذا التقريرَ انتصاراً له [٣].

ولكنه تغافل عن أمرين هامّيْن:

أولهمـــا: أن اللجنة لم تتعرَّض لمناقشته تفصيلا فيما ادعاه، وما جاء به من آراء.

وذكرَتْ في التقرير ــ بالنَّص ــ أنها "لا تخوض في هذه الآراء، مُصَوِّبة لها أو مُخَطِّئة"؛ حيث كانت مهمتُها ــ فقط ــ هي مـــا أشرنا إليه.

ثانيهمـــا: أنَّ التقرير ذاتَه قد تضمّن إعلان اللجنة ـــ بـــشكل مُجمَل ــ بأنها لا تُقره على تأويلاته وأفكاره، خاصةً ادعـــاءَه بـــأن

---

3 ـ انظر: أبي آدم .. قصة الخليقة بين الأسطورة والحقيقة، د. عبد الصبور شاهين، ص ١٩، ط الثانية، مؤسسة أخبار اليوم – القاهرة، (بدون تاريخ)، والمُرَجَّح عندي أنها صدرت في صيف هذا العام (٢٠٠٤م)؛ حيث لم يكن للكتاب أيُّ أثر في الأسواق ـ مع كثرة ما بحثنا عنه في مصر ـ قبل منتصف شهر «يوليو» من العام المذكور.

(آدم) خُلق من أبوين، بل أخذت عليه بعضَ التعبيرات التي ترى أنها غيرُ لائقةٍ في وصف المشيئة الإلهية في أمر الخلق ... إلى غير ذلك مما تضمنه التقرير من ملاحظات [٤].

هذا؛ والمؤلَّف مُصِرٌّ على رأيه، يستعلن به في الصحف والمجلات والفضائيات، مع تزايدٍ في غروره والنَّيْلِ من مخالفيه، ثم قامت مؤسسة "أخبار اليوم" المصرية في هذا الصيف (٢٠٠٤م) بإخراج طبعة جديدة من الكتاب، ما أثار جدالا طويلا، وسوء فهم، لا سيما ونحن في عصر الفضائيات والإنترنت.

وكي لا يكون سكوتُ أهلِ العلمِ مُغْرياً لعامّةِ الناس، ومُوهِماً لهم بأن يعتقدوا صحةَ ما حواه الكتاب من مغالطات، وكي لا يتخذَه المؤلِّف أيضا دليلا على موافقتِه فيما ذهب إليه ــ كما سمعْتُه يشير إلى هذا المعنى في بعض الفضائيات ــ؛ لزِم الكشف عن أنّ تلك المغالطات لا وجود لها إلا في خيال كاتبها فقط، وأنها لا حظّ لها من الصحة، في ميزان صريح القرآن، وصحيح وصريح السنة، وفي ضوء ما أجمعت عليه الأمة.

وقد اشتمل هذا البحث بعد المقدمة على ثلاثة فصول وخاتمة:

أما الفصل الأول فبعنوان: (بين البشر والإنسان .. الفكرة الأساسية لكتاب أبي آدم).

وقد ضمَّنْتُه وصفاً وعَرْضاً لفكرة كتاب "أبي آدم" الأساسية ــ بحسب ما تصورها مؤلف الكتاب ـ مستشهِداً بنصٍّ كلامه في التدليل على كل ما أُورِدُه، دون تعليق مِنِّي.

---

4 ـ التقرير منشور في آخر كتاب «أبي آدم» (السابق)، ص ١٩٥ – ٢٠٤.

وأما الفصل الثاني فقد جاء بعنوان: (إبطال الأسس التي قـــام عليها كتاب "أبي آدم").

وقد كشفْتُ فيه عن جملة من الأسس المتهافتـــة، والمجافيـــة للمنهج العلمي، التي بنى عليها المؤلف كتابه، بدءً من دواعي قيامه بالكتابة في موضوعه ــ كما أخبر هو بها ـــ، ومرورا بمنهجـــه في معالجة الفكرة الأساسية للكتاب، وما تضمّنَه هـــذا المـــنهج مـــن إجراءات مرفوضة في ميزان العلم والعلماء، وانتهاءً بما تَـــصـــوّره وقرّره من نتائج وأحكام مرسلة، جاءت جُزافا بلا أدلة معتبرة.

ثم كان الفصل الثالث بعنوان: (نقض الفكرة الأساسية لكتاب "أبي آدم").

وقد تضمّن مناقشةً متأنيةً للفكرة الأساسية لكتاب "أبـــي آدم"، وهي التفريق بين (البَشَر) و (الإنسان)، أبانـــتْ عـــن تهافتِهـــا وبطلانها، وبينتْ أنها عارية من الصحة، لا تستند على أية حجـــة، بالرغم مما ادّعَى مؤلف الكتاب أنها أدلة.

وأما الخاتمة: فقد تضمنت خلاصةً موجَزةً لما انتهتْ إليه هـــذه الدراسة، وإشارةً إلى أهمِّ ردودِ العلماء على كتاب "أبي آدم"، وموقفِ المؤلِّفِ منها.

واللّهَ نسألُ أن يقيَنا الشطط والزلل، وأن يهديَنا سواء السبيل.

الفقير إلى الله: إسماعيل علي محمد

الخميس: ٢٦ من جمادى الآخرة ١٤٢٥هـــ

١٢ من أغسطس ٢٠٠٤م

في: كفر حماد ــ كفر صقر ــ الشرقية

مصر

الفصـــــل الأول

بين البَشَــــر والإنســــان

(الفكرة الأساسية لكتاب «أبي آدم»)

إن الفكرةَ الأساسيةَ التي يتمحور حولها كتاب «أبي آدم» للدكتور «عبد الصبور شاهين» تتلخص في ادعاء المؤلِّف أن «البَشَر» غيرُ «الإنسان»؛ حيث إن «البَشَر» ـ كما يقرّر ـ كان نقطةَ البدء في وجود الإنسان، وأنّ بداية الخلقِ الآدميِّ كانت «بَشَراً»، ثم ظل هذا «البَشَر» خاضعا لعمليات التسوية والتعديل فترة من الزمن، قدّرها المؤلِّف ببضعة ملايين من السنين، حتى تمّ اصطفاء الإنسان وهو «آدم» مِنْ أبوين مِنَ البشر، وكذلك حواء، من آخر جيل بشريّ، وعند هذه المرحلة ـ مرحلة اصطفاء آدم الإنسان ـ أخلى الله ـ تعالى ـ الساحة لآدم، بأن أباد الجنس البشريَّ كلَّه، وابتدأ طورٌ جديد هو طور «الإنسان» المُنْتقَى من «البَشَر».

أمّا ملامح كلٍّ من «البَشَر» و «الإنسان» في تصوّر صاحبِ كتاب «أبي آدم» فيمكن إجمالُها على النحو التالي:

أولا: أنّ «البَشَر» كانوا بمثابة مرحلة تحضيرية، أو كانوا مشروعا إلهيًا لخلق «الإنسان»، وقد أجريت عليه (أي البشر) عمليات التسوية والنفخ والتصوير، والتطوير والتحسين، لملايين السنين، حيث يقول:

«فقبْل التسوية لم يكن المخلوق البشريُّ إنسانا، بل كان بدايةَ خلقِ

إنسانٍ في حيّز القوة، قبل أن يكون إنسانا في حيّز الفعل» [٥].

كما يؤكِّد على أن «وجود (البشر) إنما كان بمثابة المراحل التحضيرية لذلكم المخلوق [يقصد الإنسان] الذي قضى على الأرض ملايين السنين بين عوامل التسوية، وتحصيل خواص الجمال والكمال» [٦].

وقد اشتملت هذه الفترة البشرية التحضيرية، أو ذلك المشروع الإلهيُّ لخلق الإنسان، منذ بداية «البَشَر» وحتى ظهور أول إنسان «آدم» على ثلاث مراحل، يذكرها المؤلِّف قائلا:

«ومعنى ذلك أن خلق الإنسان تم عبر ثلاث مراحل هائلة، هي (الخلق، والتسوية، والنفخ)، ومن السذاجة أن نفسِّر هذا النفخ بأنه بثُّ الروح في الجسد [٧]، فقد حدث ذلك في مرحلة (الخلق) الأولى التي

---

5 ـ أبي آدم، ص ٢٣.

هذا؛ وقد كانت عبارة المؤلف في الطبعة الأولى هكذا: «فقبل التسوية لم يكن المخلوق البشريُّ إنسانا، بل كان مشروعَ إنسانٍ في حيز الفطرة، قبل أن يكون إنسانا في حيز القوة». انظر: أبي آدم .. قصة الخليقة بين التأويل الجامح والخيال المرفوض، د. عبد العظيم المطعني، ص ٣٧، مكتبة وهبة – القاهرة، ط الأولى ١٤١٩هـ ١٩٩٩م. نقلا عن: أبي آدم، د. عبد الصبور شاهين، ص ٨٨، دار الروافد الثقافية – القاهرة، ط الأولى ١٩٩٨م.

6 ـ أبي آدم، ص ١١٩.

7 ـ مِن المؤسِف أنه كثيرا ما يستخدم المؤلف هذا الأسلوبَ غيرَ اللائق في الكلام على الآراء التي لا تعجبه، مع ملاحظة أنّه هنا يرمي الأمةَ كلَّها بالسذاجة؛ حيث إنها فهمت النفخ بالمعنى الذي يحيل الجماد إلى كائن حيٍّ، وهو ما لا يعجبه، متناسيا أنه يشذّ في تصوراته البديلة التي يخالف بها في كثير من الأحيان ما أجمعت عليه الأمة سلفا وخلفا، وما كلامُه هنا عن معنى النفخ إلا =

أحالت التراب أو الطين إلى مخلوق ظاهر (بَشَر)، يتحرك على الأرض بالروح الحيوانيّ، كما تتحرك سائر الكائنات من حشر، وطير وحيوان، ثم تناولت القدرة ذلك المخلوق في المرحلة الثانية (بالتسوية) أو ما يمكن تشبيهه بهندسة البناء وتجميله، وهي مرحلة التعديل الماديّ أو الظاهريّ، وقد استغرقت ملايينَ السنين، والله أعلم بتفاصيلها، ثم جاءت المرحلة الثالثة للهندسة الداخلية، وهي المتمثلة في تزويد المخلوق السويّ بالملكات والقدرات العليا، التي جوهرها (العقل)، والحياة الاجتماعية ثمرة العقل، واللغة وسيلة الاتصال بين أفراد المجتمع من العقلاء، وبذلك اكتمل [مشروع] بناء (الإنسان)، فكان (آدم) هو أول (إنسان)، وطليعة سلالة التكليف بتوحيد الله وعبادته» (٨).

ويقول: «لقد كانت ملحمة هائلة !! تلك التي استغرقها خلق البشر

= صورة من هذه التصورات الشاذة، حيث يتصور أن النفخ معناه تزويد الإنسان «آدم» بالملكات ووسائل الإدراك والعقل، من سمع وبصر ونحوهما، وهذا هو ما يعبِّر عنه بالمرحلة الثالثة، والتي يطلِق عليها (الهندسة الداخلية) ـ كما في نهاية النص الذي نعلق عليه ـ، أي أنّ النفخ عنده مقصور على المرحلة الثالثة للهندسة الداخلية.

وهذا كلام لا أساس له من الصحة، وسوف يأتي مزيد من الكشف عن أمثال هذه الخيالات والمجازفات، والردِّ عليها في بحثنا هذا ـ إن شاء الله ـ.

8 ـ أبي آدم . ص ١١٠ ـ ١١١ . وفي الطبعة الأولى كانت عبارة المؤلف مشتملة على كلمة «مشروع»، هكذا: «وبذلك اكتمل مشروع بناء الإنسان». انظر: أبي آدم .. قصة الخليقة بين التأويل الجامح والخيال المرفوض، د. عبد العظيم المطعني، ص ٧٢. نقلا عن: أبي آدم للدكتور عبد الصبور شاهين، ص ١٠٥، (الطبعة الأولى).

وتسويته وتزويده بالملكات العليا التي أصبح بها (إنسانا) » [٩].

«لقد استغرقت هذه الملحمة ـ كما سبق أن قلنا ـ ملايينَ السنين، ولكنها مرت ظلاما في ظلام، أو: غيبا في غيب، حتى أذن الله للصبح أن ينبلج، فأشرق الإنسان من سلالة البشر، واكتمل الخلق، وجاء آدم !!» [١٠].

ويصف تلك المراحلَ خلال الفترة البشرية بأنها: «وقائع بناء جسد آدم، وعقله، وروحه، وملكاته، وخصائصه » [١١].

ثانيا: (البشر) ابن الطين مباشرة ، أما (الإنسان) فهو من (سلالة) نسلت (من طين)، أي أنه ـ يعني الإنسان ـ لم يُخلق مباشرة من الطين، حيث يقول:

«فخلْقُ الإنسانِ (بدأ من طين) أي عند البداية البشرية، ثم استخرج اللهُ منه نسلا (من سلالة من طين)، ثم كانت التسويةُ ونفخُ الروحِ، فكان (الإنسان) هو الثمرةَ في نهاية المطاف .. عبر تلكم الأطوار التاريخية السحيقة العتيقة !!» [١٢].

والإنسان الذي يبدأ عهدُه بآدمَ وحواءَ قد خُلِق من أب وأم، فيقول:

«ليس غريبا أن نتصوَّر ـ بناء على هذا ـ أن آدم جاء مولودا لأبوين ، وأن حوّاء جاءت كذلك ، على الرغم مما سوف يلقى هذا التصوُّرُ من

---

9 ـ أبي آدم، ص ١٢٢.

10 ـ السابق، نفس الموضع.

11 ـ أبي آدم، ص ١٢٢ـ١٢٣.

12 ـ السابق، ص ٩٦.

معارضة تلقائية، ورفض عنيف !! وبلا تفكير !! » [١٣].

وجدير بالذكر أن من الأمور الواضحة المتكررة في كتاب « أبي آدم»: أن مؤلفه يَحمِلُ جميعَ الآيات التي تتحدث عن الخلق من الطين والصلصال، والحمأ المسنون؛ على أن المقصود بها خلْقُ البشر، ويَحملُ جميع الآيات التي تتحدث عن الخلق من النطفة والعلقة والمضغة، وما يتصل بالجنين في بطن أمه؛ على أن المراد بها خلق الإنسان» [١٤].

ثالثا: أنّ البشر كانوا بلا أسماع ولا أبصار ولا عقول، ثم زوّدهم الله ـ تعالى ـ بهذه الأدوات بالتدريج، في أثناء مرحلة (التسوية) التي استغرقت ملايين السنين، حيث يقول المؤلف:

«وحسبنا أن نلاحظ هنا ما يشير إلى بعض مراحل التسوية في قوله تعالى في نص سورة السجدة: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ..﴾ [السجدة: ٩]، فقد تم هذا الجَعْلُ خلال مراحل التسوية، وهو ما يفترض أن (البشر) كان في المراحل الأولى بلا سمع ولا بصر ولا فؤاد (عقل)، تماما كما هو حال المولود، حين يخرج

---

13 ـ أبي آدم . ص ١٢٢.

14 ـ وإنّ صريح القرآن الكريم يبطل هذه الخيالات؛ حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]، وقال سبحانه: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤].

ولسوف تأتي مزيدٌ مِن الردود في مواضعها مِن بحثنا بمشيئة الله تعالى.

من بطن أمه .. لا يسمع ولا يبصر ولا يعقل .. لانعدام الحاجة إلى هذه الأدوات في المرحلة الأولى من الوجود، فكل ما يحتاجه الوليد هو أن تكون له شفتان، يمتص بهما غذاءه من ثدي أمه، وبعد فترة ـ وبالتدريج ـ يبدأ في استخدام عينيه، وأذنيه وعقله في التعامل مع ما حوله من عناصر الحياة، وهو قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ [النحل: ٧٨].

لقد خلق الله البشر أطفالا أو كالأطفال .. بلا أسماع ولا أبصار ولا عقول، ثم جعل لهم هذه الأدوات في مراحل التسوية المتطاولة، حين شاءت القدرة أن تزوِّد هذا المخلوقَ البشريَّ بما يحتاج إليه من أدوات الكمال »[١٥].

رابعا: البشر ـ كما في خيال المؤلف ـ كانوا عبارة عن مجتمعات حيوانية في سلوكها، وجميع طرائق عيشها، وأنهم كانوا همجا معربدين، والِغين في بحور الدماء، ولم يكونوا يعرفون دفن الجثث عند الموت، وكان بعضهم يأكل بعضا.

هكذا يقرر أنهم: «كانوا مجتمعا حيوانيا، كل فرد فيه ككل فرد، وكل فرد بمثابة أية جماعة، لا اعتبار للفروق الفردية.

لقد كان (البشر) خلال الأحقاب والعهود المتطاولة مجرد مخلوقات متحركة، حيوانية السلوك، ولكنها تزداد في كل مرحلة تعديلا في

15 ـ أبي آدم . ص ٩٦ ـ ٩٧ .

سلوكها، ونضجا في خبرتها، وتلونا في طرائق التفاهم اللغوي فيما بينها، وربما كان هذا هو المقصود بسؤال الملائكة للرب ـ جل وعلا ـ ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠] .. كان هذا هو الواقعَ المشاهدَ، فتعجبت الملائكة من استخلاف هؤلاء المفسدين المتوحشين !! » [١٦].

ثم يقول: «إن الإنسان في مطلع فجره لم يكن يدفن جثث الموتى من بني جنسه، حتى شاهد ـ وهو في قمة مأساته ـ الغراب يلقنه درس الدفن، بعد ما دخل سنَّ الرشد، ودخل في المرحلة الآدمية الجديدة، ولا يبعد أن نتصور أن البشر كانوا في بداية وجودهم، وقبل رشدهم يتآكلون ويتفارسون .. أي يأكل بعضهم بعضا» [١٧].

وفي العهد البشري ـ كما تصور المؤلف ـ «كانت الجثث تترك في العراء كسائر الحيوانات النافقة، تأكلها الضواري، أو تتآكل» [١٨].

والبشر عنده: «ذلك المخلوق الحيوانيّ، اللازق بالأرض، النابت من التراب، المعربد في ممالك الطير والحيوان، السافك لدماء جنسه وغير جنسه» [١٩].

أما الإنسان فقد جاء ذا عقل وإرادة وسمع وبصر، وملكات وقدرات، واستعدادات تؤهله للتفرقة بين الخير والشر.

---

16 ـ أبي آدم، ص ١٠٧.

17 ـ السابق، ص ١٢٨.

18 ـ السابق، ص ١٤٠.

19 ـ أبي آدم، ص ١٣٩.

يقول المؤلف: «فلما قضت إرادة الله بإيجاد هذا الخلق الإنساني؛ قدر خلق آدم، وهو مستوىً خاص جدا من (البشر)، مزوَّد بأدوات كاملة من العقل واللغة والعاطفة، وملكات الإدراك والضمير، والإرادة، والاستعدادات الفطرية والغريزية، للتفرقة بين الخير والشر، وكل ذلك ثمرة من ثمرات النفخة الإلهية التي أتم الله بها خلقه، وهيأه ليعيش في ضوء المعايير الدينية التي أرسل بها الأنبياء» [٢٠].

خامسا: البشر ـ في تخيل المؤلف ـ لم يكونوا مكلفين بدين، ولم يعرفوا توحيد الله وعبادته في سائر عهدهم، وخلال جميع أطوار خلقهم.

يقول صاحب كتاب «أبي آدم»: «العهد البشريّ لم يعرف تكليفا، ولا تلقى رسالة، ولا اتبع دينا» [٢١].

ويقرر أن البشر «لم يكونوا يدركون شيئا عن حقيقة الحياة، وطبيعة الوجود، إلى أن كان اصطفاء (آدم) فعرفت الخليقة خالقها» [٢٢].

ويصف البشر بأنهم «والِغون في بحار الدماء، لا يعرفون دينا، ولا يعبدون إلها» [٢٣].

ويقول: «كان الاتصال الجنسيّ بين الذكور والإناث ـ منذ ملايين

---

20 ـ أبي آدم، ص ١١٥.

21 ـ ص ١٤٠.

22 ـ أبي آدم ، ص ١٧١.

23 ـ السابق، ص ١٤٠.

السنين ـ بلا قيد أو شرط خلال العهد البشري، حيث لم يكن دين ولا تكليف» [٢٤].

وإذا كان البشر غيرَ مكلفين ـ كما زعم المؤلف ـ ؛ فالإنسان ـ في تصوّرِه ـ هو المخلوق المكلَّف بعبادة الله وتوحيده، إذ يقول:

«أما الإنسان فلا يطلق بمفهوم القرآن إلا على ذلك المخلوق المكلَّف بالتوحيد والعبادة لا غير، وهو الذي يبدأ بوجود آدم عليه السلام، وآدم على هذا (أبو الإنسان)، وليس (أبو البشر) » [٢٥].

ويقول: «والتكليف الديني منوط بصفة (الإنسانية)، لا بصفة (البشرية) » [٢٦].

«فكان آدم عليه السلام العلامةَ الأولى لبدء عهد جديد، هو عهد الإنسان المتدين: آدم وبنيه» [٢٧].

سادسا: وأخيرا .. أفنى الله البشرَ كلهم، وأخلى منهم الأرض، بعد أن عاشوا ملايين السنين؛ ضياعا في ضياع، وظلاما في ظلام !!

وبعد أن اصطفى منهم شخصا اسمه (آدم)، وامرأة اسمها (حواء) أبادهم عن بكرة أبيهم، وأخلى الساحة للإنسان، الذي كانت بدايته (آدم وحواء) !!

---

24 ـ السابق، ص ١٦٩.

25 ـ أبي آدم، ص ١٠٤.

26 ـ السابق، نفس الموضع السابق.

27 ـ السابق، ص ١٢٤.

يقـول المؤلـف: «ولـيس يبعـد أن نفـترض أن الخـالق سـبحانه ـ وقـد مضت مشيئته بتفرد آدم وذريتـه بالـسيادة عـلى الأرض، والنهـوض بـأمر الدين، وإقامة التكاليف، وفي مقـدمتها التوحيـد ـ قـدَّر سبحانه فنـاء كـل البشـر، من غـير ولـد آدم، وذلـك بعـد عـزل الـسلالة الجديـدة المنتقـاة في الجنة، حتى تتم إبـادة جماعـات الهمـج البـشرية، لتبـدأ بعـد ذلـك الملحمـة الإنسانية بطليعتها المصطفاة: آدم وحواء» [٢٨].

«وأُخليت الأرض من المفسدين وسفاكي الدماء، ولم يعد فيها سـوى الإنسان الجديد (آدم: أبي الإنسان، وحواء: أمه) » [٢٩].

أما بعــد: فهذه هي الفكرة الأساسية التي انبنى عليهـا كتـاب «أبي آدم»، وهي التي سيطرت على مؤلِّفه، وملكـت عليـه كـلَّ تفكـيره، ومـن أجل إثباتها ركب كلَّ صعب وذلـول، وأتـى بكـل عجيـب وغريـب مـن الأقوال والمزاعم، والمفترضات والظنون والتخمينات، وخرج عن إجماع الأمة منذ عـصر النبـوة حتـى يـوم النـاس هـذا، واشـتط في تأويلاتـه لآي الذكر الحكيم، فقال بما لم يقل به أحد في الـسالفين أو المعـاصرين، وردَّ مـا صحَّ من الأحاديث التي تنسف فكرتـه ... ولكـن في النهايـة لم تُغْـن عنـه محاولاتـه الـسابقة مـن شيء في إثبـات تـصوراته، وبقيَـتْ أفكـارُه مجـرد خيالات وأحكام جزافية، كما سيتبين من خلال هذه الدراسة إن شاء الله.

---

28 ـ أبي آدم، ص ١٠٥.

29 ـ السابق، ص ١٧٠.

الفصـــــل الثـــــاني

نقْض الأسس التي قام عليها كتاب «أبي آدم»

لقد بَنَى صاحبُ كتاب «أبي آدم» كتابَه على جملة من الأسس المتهافتة، والمجافية للمنهج العلميّ، بدءً من دواعي القيام بالكتابة في موضوعه، ومرورا بمنهج المعالجة لفكرة الكتاب، وما تضمنه هذا المنهج من إجراءات مرفوضة في ميزان العلم والعلماء، وانتهاءً بما تصوّره وقرره من نتائج وأحكام مرسلة، جاءت جزافا بلا أدلة معتبرة.

وفي هذا الفصل سنكشف ـ بتوفيق الله ـ عن هذه الأسس، ونبين بطلانها في ذاتها، وبالتالي عجْزَها عن أن تقوم عليها أو تَثْبُت بها تصوّراتُ كتاب «أبي آدم»، وذلك على النحو التالي:

أسباب قيام مؤلف كتاب «أبي آدم» بكتابته واهية

لعل أول ما يتبادر إلى الذهن هو السؤال عن سببِ إثارة تلك الفكرة، وإقدامِ مؤلِّف كتاب «أبي آدم» على تسطير كتابه !!

ويجيب المؤلف عن هذا التساؤل، فيذكر بأن السبب الذي دفعه إلى هذا الأمر هو أنه نظر في قصة خلق آدم عليه السلام ـ بحسب الروايات القديمة ـ فلاحتْ له مشكلة خطيرة، ألا وهي وجودُ تصادم بين معطيات الرواية القديمة ومعطيات العصر، وأن هذه المشكلة قد شغلتْه لأكثر من ربع قرن من الزمان، فقرر ـ من أجل هذا ـ أن يقوم بمحاولة التوفيق بين

التصوير القرآني والاتجاه العلمي في تصويرِ الحياة البشرية.

وبالإضافة إلى هذا يضيف سببا آخرَ حمَلَه على تسطير كتابه؛ ألا وهو مواجهةُ الرواياتِ الإسرائيلية [٣٠] المتعلقةِ بقصة الخلْق، وانتزاعُ العقلِ المسلم منها.

يقول المؤلف ـ عقب إيراده جانبا من الروايات التي رواها بعض العلماء القدامى في قصة خلق آدم ـ:

«إن كل ذلك صار يمثل أمام العقل الحديث مشكلة خطيرة، نتيجة التصادم بين معطيات القصة القديمة، ومعطيات العصر الحديث، وهو

30 ـ «الإسرائيليات» هي الأخبار والأحداث المنسوبة إلى بني إسرائيل والمروية عن مصدر من مصادرهم، وتطلق في اصطلاح علماء التفسير والحديث على كل ما تطرق إلى التفسير والحديث من أساطير قديمة، منسوبةٍ في أصل روايتها إلى مصدر يهوديٍّ أو نصرانيٍّ أو غيرهما، بل توسع بعض المفسرين والمحدّثين فعدُّوا من الإسرائيليات ما دسّه أعداء الإسلام من اليهود وغيرِهم على التفسير والحديث من أخبار لا أصل لها في مصدر قديم، وهي أخبار من صنع أعداء الإسلام، صنعوها بخبث نية وسوء طوية، ثم دسُّوها على التفسير والحديث. (الإسرائيليات في التفسير والحديث، د. محمد حسين الذهبي، ص ١٣ـ ١٤ بتصرف، مكتبة وهبة – القاهرة، ط الثالثة ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م).

ولقد قسمها العلماء إلى ثلاثة أقسام، وذكروا حكم رواية كل قسم:

الأول: قسم يوافق القرآن الكريم وصحيح السنة، وهذا تجوز روايته. **الثاني**: قسم يخالف القرآن الكريم وصحيح السنة، وهذا لا تجوز روايته. **الثالث**: قسم لا من هذا القبيل ولا من ذاك، أي لا يوافق ولا يعارض، فهذا لا نؤمن به، ولا نكذّبه ولا نصدّقه، وتجوز حكايته على سبيل الاستئناس ونحوه. راجع: مقدمة في أصول التفسير، لابن تيمية، ص ٩٥ ـ ٩٧، دار الصحابة – مصر، الإسرائيليات في التفسير والحديث، ص ٤٢ وما بعدها.

ما ظل يخامر عقلي طيلة ربع قرن من الزمان أو يزيد، في محاولة لفهم النصوص التي جاءت في القرآن الكريم، وهي قطعية .. تروي وقائع قصة الخلق، وأيضا للتوفيق بين التصوير القرآني، والاتجاه العلمي في تصوير الحياة البشرية على هذه الأرض، ولا حرج علينا في هذا ما دمنا نرعى قداسة النصوص المنزلة، وما دمنا لا نخالف معلوما من الدين بالضرورة، وما دمنا نقدم رؤية عقلية تحترم المنطق، وتستنطق اللغة من جديد، وتدعم إيمان المؤمنين بما ينطوي عليه كتاب الله من أسرار، قد تكون خفيت عن بصائر ذوي التمييز، ثم أذن الله سبحانه لبعض السر أن ينكشف، وللرؤية أن تنجلي، وهو ما نؤمل أن نكون قد حققناه في هذا الكتاب» [٣١].

ثم يضيف قائلا: «والهدف هو انتزاع العقل المسلم من براثن النقول الإسرائيلية المحشوة بالخرافات المنافية لكل ما هو عقل، وعلم، ونور» [٣٢].

ويقول: «أمّا الكتاب فقد كان صخرة أردت بها أن أدقّ رأس الأفعى الإسرائيلية اللابدة في الثقافة الإسلامية القديمة، ممثَّلة فيما عرف بالإسرائيليات» [٣٣].

ومـــاذا قدَّم المؤلـــف ؟!

إن المرء ليتملكه العجب من هذا الكلام !! ويتساءل:

ما وجْهُ التصادم بين كون الروايات القديمة أجمعت على أن الإنسان

---

31 ـ أبي آدم، ص ١٠.

32 ـ السابق، ص ١٧.

33 ـ أبي آدم، ص ٢٠.

الأول هو آدم ﷺ، وأنه هو أبو البشر، وأبو الإنسان، وأنه قد خُلِق مِن طين بلا أبٍ ولا أمّ؛ أيُّ تصادم بين هذا المضمون، وبين معطيات العلم والعقل والمنطق ؟!

ثم .. ماذا قدّم هو لإزالة هذا التصادم (المزعوم)؟

إن البديل الذي قدّمه هو أنه تخيل أن البشر كانوا مرحلة سابقة على الإنسان، وقد ظلوا ملايين السنين يخضعون للتحسين والتعديل والتطوير، حيث كانوا مرحلة تحضيرية، ومشروعا إلهيا لخلق الإنسان، ثم انتخب الله منهم الإنسان (آدم)، وبعد ذلك قام الله بإبادتهم، وإخلاء الساحة منهم، كي يتهيأ الجوُّ لآدم !!

هل هذه هي الرؤية العقلية التي تحترم المنطق ؟!

وهل هذا هو الفهم الواعي للنصوص القرآنية؛ الفهم الذي يخرج عن المذهب التقليدي الذي التزمت به التفاسير كلها - كما زعم هذا في الصفحة الخمسين مِن كتابه - ؟!

هل فكرته الخيالية - التي لخّصناها من قبل - هي التي توفِّق بين العلم والقرآن، بعد أن باعد بينهما علماء الأمة أجمعون - في نظره - ؟!

إنه لم يقدِّم بديلا صحيحا، ولا منطقيا، ولا مقبولا ..

هذا أمْر ..

وأمرٌ آخر: هل كل العلماء القدامى وقعوا ضحية للإسرائيليات، والْتبست عليهم الأمور، وحُرموا العلم والعقل اللذيْن يُجَنِّبانهم الوقوع

في حبائلها، والتلقِّي لها بالقبول طيلة هذه القرون المتطاولة ؟!

ألم يوجد من بينهم عالم رشيد، حتى يأتيَ صاحب كتاب «أبي آدم» في القرن الخامس عشر الهجريِّ ليكتشف أنه قد: «طغَى طوفان الإسرائيليات، وأصبحت المصدرَ الوحيد للحديث عن العالم القديم، والخلق »[٣٤] ـ على حد تعبيره ـ ؟!.

الحقيقة أن قصة خلق أبينا آدم ﷺ، وبداية الحياة البشرية على وجه الأرض، كما جاءت في مصادرنا الإسلامية المعتمَدة، لا تتضمن ما يخالف العقل والمنطق، كما أن ما لحق بها من روايات إسرائيلية أو مكذوبة قد تصدى لها جموع غفيرة من العلماء في كل عصر، وكشفوا زيفها وأثبتوا بطلانها، تبرئة للذمة، وإقامة للحجة.

وعلى ذلك فلم يكن هناك مِن مسوِّغ لصاحب كتاب «أبي آدم» لأن يسطِّر كتابَه، ويأتي فيه بما أتى، مما لا يوافقه شرع ولا عقل، وكانت أسبابه التي استند إليها في تأليف كتابه ـ كما يبدو ـ أسبابا واهية.

لقد أهدر المؤلف ما أجمعت عليه الأمة، وما تواتر من فهمها لكتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ بشأن قصة خلق آدم عليه الصلاة والسلام، ووضع نفسه في جهة مقابلة للعلماء والمفسرين جميعا، وأطلق لخيالاته العِنان، وأقحم عقله في منطقة ليست من اختصاصاته، وأجهده وحمله على أن يسرح في مجاهل الغيوب، فعاد يخبط خبط عشواء.

---

34 ـ أبي آدم، ص ١١٩.

إن للخيال مجالاته، وللعقل حدودَه التي ينبغي أن يقف عندها، وأن لا يسبح إلا حيث يجيد السباحة ..

وقطعا فإن قضايا الغيب ليست من مجالات الخيال، ولا مما يدخل في حدود العقل.

طبيعة موضوع الكتاب وعلاقة النظريات العلمية به

إن الموضوع الذي تضمنه كتاب «أبي آدم» وهو بداية نشوء الحياة الإنسانية على وجه الأرض؛ من الموضوعات التي تدخل في دائرة (الغيبيات) أو (السمعيات) التي لا سبيل للخوض فيها بالاعتماد على التخمينات والافتراضات، وإنما لا يكون التعرض لها والحديث في شأنها إلا بالاعتماد على السماع الصادق، بما ثبت عن المعصوم ﷺ، مما جاءنا به في كتاب الله تعالى، أو سنته ﷺ.

أما تلك الشائعات التي تسري في محيط الأجواء العلمية، التي يُطلَق عليها أحيانا (نظريات علمية)، وأحيانا أخرى (معطيات العلم)؛ فإنها لا تُغنِي في هذا المجال الغيبيِّ الموغل في القِدم مِن شيء، وإنما الكلمة الأولى والآخِرة في هذا المجال هي للوحي.

ولا يُلتفَت إلى شيء من تلك (النظريات) إلا إذا صار (حقيقة علمية) لا ريب فيها.

وليس كل ما يُشاع في مجال العلم يكون من حقائقه الدامغة القاطعة.

وحقا ما يقوله الشيخ «محمد الغزالي» ـ يرحمه الله ـ: «لكي يُقال: هذه

حقيقة علمية؛ لا بد من أمرين:

إقامة دليل دامغ على صحتها.

ثم إقامة دليل آخر على استحالة غيرها» (٣٥).

وإنه لا يوُجَد في العالم كلِّه حقيقة علمية ـ بالضابطين المذكورين ـ تتضمن أو تؤيِّد ما يدّعيه صاحب كتاب «أبي آدم» من أن (البَشَر) غير (الإنسان) بالمواصفات والفروق التي تخيلها في كتابه.

إنه ليس سوى حقيقةٍ علميةٍ واحدةٍ بشأن بداية الحياة الإنسانية على الأرض؛ ألا وهي ما جاء به الوحْيُ الإلهيُّ المتمثل في القرآن الكريم، وما ثبت مِن سُنَّةِ الرسولِ الأمين ﷺ بشأْن خلْقِ آدم وحوّاء، وبنيهما، تلك الحقيقة التي تنْسِف أساطيرَ «عبد الصبور شاهين» حول أبيه آدم.

وإن القرآن الكريم ليحسم هذا الأمرَ وأمثالَه، ويقطع الطريق على كل تخيُّلٍ أو تخرُّصٍ بشأن بداية الخلق، في قول الله جل شأنه: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١].

تناقض المؤلف بشأن حجية النظريات العلمية

ثم إن المؤلِّف نفسَه متناقضٌ بشأن حجية النظريات العلمية، مع أنه قد شغل كثيرا من كتابه وملأه بنقول مسهبة لما ذهب إليه أصحاب تلك النظريات، حول موضوع بداية الخلق.

---

35 ـ دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، ص ١٩٤، دار الوفاء – مصر، ط الثالثة ١٤١٣هـ ١٩٩٢م.

إنه يقلل من قيمتها تارة، ويُهوِّل من شأنها أخرى، ويجعلها حاكمة على ما يرفضه من أقوال أهل العلم، وأئمة الدين، ولا سيما المفسرين.

ففي الفصل الثاني من الباب الأول، والذي جعله بعنوان: (النظرة العلمية)؛ نراه قد عَمَدَ إلى حشد عدد من النظريات التي تؤرخ لبداية وجود الإنسان على سطح الأرض ـ مع ملاحظة أنه كلَّه استطراد، ونظريات قائمة على الافتراضات والظنون التي لا تُغني من الحق شيئا ـ ثم قلّلَ مِن أهميتها قائلا:

«نحن إذنْ أمام جملة من النظريات المشتجرة والمتعارضة، التي تركز كلُّها على تاريخ وجود الإنسان، وأصل هذا المخلوق، وهي كلُّها تؤكد نسبية المعلومات التي تضمّنتْها، ولكل واحدة منها أدلتها التي تستند إليها في تقرير جوانب التصور الزمنية والخِلقية، ولا ريب أن في كل منها شيئا من الحقيقة، وأشياء من الخيال تصب في بحر الضلال، حفاظا على نسبية المعلومات والنظريات في دلالتها على جوهر الحقيقة» [٣٦].

ثم يقول: «لا بد أن نسلّم بأن معطيات العلم ليست حقائق مطلقة في أغلب الأحيان، بل هي رؤى نسبية، من حيث إن العقل الذي يتوصل إليها مرتهن بقيود من البيئة، والزمان، والقدرات الذاتية، والدلائل المتاحة .. إلخ» [٣٧].

---

36 ـ أبي آدم، ص ٤٣.

37 ـ أبي آدم، ص ٤٩.

ونحن نقول له: إذا كان الأمر كما تقول ـ ونحن نوافقك عليه ـ فلماذا كل ذلك الحشو والاستطراد، بنقل تخمينات وظنون الباحثين في هذا الموضوع الغيبي ؟!!

ولكنه لا يثبت على هذا الرأي بشأن حجية النظريات العلمية، وآراء الباحثين حول بداية الحياة الإنسانية على الكوكب الأرضيّ، فنراه في أماكن متفرقة من كتابه قد حَفِيَ بها حَفَاوَةً لا تَخْفَى، وعوّل عليها، بل إنه يرى أن مِن المحتوم في حق مَنْ يتصدّى لقضية الخلق أن يأخذ بها، وإلا كان متخلِّفا عن ركب المعرفة.

فهو يقول: «وصار لزاما على من يتصدى لكتابة شيء عن هذه القصة [يقصد قصة الخلق] أن يأخذ في اعتباره ما كشف عنه العلم الحديث من حقائق نسبية، وما قال به من نظريات حتى لا يبدو متخلِّفا عن موكب المعرفة المعاصرة » [٣٨].

ويقول: «وكل ما سجله العلم من مراحل الحياة على الأرض هو ولا شك من معطيات البحث والسير فيها، فهي خطوات في الطريق الصحيحة، تهدي الإنسان إلى أصله ومنشئه، عبر تلك الآماد السحيقة» [٣٩].

ويعترض على ما فهمتْه الأمةُ كلُّها مِن معنى سجود الملائكة لآدم، ويؤوِّل السجود تأويلا فاسدا، لا تؤيِّده اللغةُ التي نزل بها كتابُ ربِّ

---

38 ـ السابق، ص ٢٧.

39 ـ أبي آدم، ص ٣٨.

العالمين، ولا تُقِرُّه أو تحتملُه نصوص الوحي، ولم يقل به أحد في العالمين، ويرُدُّ ما قاله العلماء حول معنى السجود ـ كما في كتب التفسير وغيرِها ـ [٤٠].

ثم يقول: «فذلك كله مبني على التصور القديم الذي يرى الموقف محصورا في اللحظات التي انبهرت فيها الملائكة بدبيب نفخة الله في جسد آدم، وهو تصور تبين قصوره عن فهم الموضوع في ضوء معطيات العلم، واحتمالات النصوص القرآنية» [٤١].

كما أنه يعوِّل على ما يُسمى بالأحافير، فيرى أن هناك أحافير تدل على

---

40 ـ أمّا عنْ تأويله لأمْر الله تعالى للملائكة بالسجود لآدم؛ فإنّه يرى أنه أمْرٌ للملائكة، وتكليفٌ لهم من الله عز وجل بحياطةَ آدم وبنيه، والمحافظةِ عليهم، وحمايتِهم مما توعّد به إبليسُ آدمَ وبنيه بالغواية، والتسلُّطِ عليهم بالإضلال، وهذا نَصُّ كلامه:

«والذي نطمئن إليه هو أن سجود الملائكة كان يعني تكليفهم بحياطة الحياة الإنسانية، ابتداء من (آدم)، وهو تكليف ماضٍ إلى يوم القيامة، تتولّى الملائكة فيه المحافظة على بني آدم، وإلهامَهم الخير، طبقا لمشيئة الله سبحانه، في مقابل ما توعد به إبليسُ آدمَ وذريتَه من الغواية والاحتناك والهيمنة» (أبي آدم، ص ١٤٧).

ثم قال: «وعليه فإن تكليف الله سبحانه للملائكة بالسجود كان يعني تكليفهم بالاشتغال بحفظ ذلك الخليفة النبي، وذريته إلى يوم القيامة، وقد رفض إبليس أن يخضع للأمر الإلهي، وأن يعمل في خدمة الإنسان كالملائكة .. وبذلك انشق على الأمر الإلهي، وصار عدوًّا لآدم وذريته، كما صار عدوًّا لله خالقه» (السابق، ص ١٥٠).

«وعلى ذلك فقد سجد الملائكة، وما زالوا ساجدين لآدم ولبني آدم» (السابق، ص ١٤٨).

وسوف يأتي ـ بمشيئة الله تعالى ـ مزيدٌ مِن الحديث عن منهجه في تأويل آيات القرآن الكريم تأويلا فاسدا.

41 ـ أبي آدم، ص ١٤٧.

وجود (البشر) بفهمه هو [٤٢].

وعلى أية حال نقول:

إن إقحام النظريات العلمية، أو ما يحلو للمؤلف تسميته بـ «معطيات العلم»، وما يتصل بها من أحافير تشتمل على بقايا لكائنات حية مِن أزمنة سحيقة، سواء أكانت لإنسان أم حيوان؛ إنّ إقحام هذا وأمثالِه في هذه القضية الغيبية أمر لا مسوِّغ له، لأنها جميعَها قائمة على الأوهام والافتراضات، كما أن العلم الحديث لا يملك حقائق في هذه المسألة التي لم يطّلع عليها أحد، وسبحان من لا يعلم الغيب سواه، كما قال جل شأنه: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ﴾ [النمل: ٦٥].

التعميم في التشنيع على علماء الأمة

إن الناظر في كتاب «أبي آدم» يجد أن مؤلفه قد كرر أكثر من مرة أن علماء التفسير، وأصحاب السير وقعوا جميعا في خطأ الاعتماد على الإسرائيليات في روايتهم لقصة الخلق الإنسانيّ، وأنهم جميعا أصحاب نظريةٍ قديمة تقليدية، متصادمةٍ مع معطيات العلم، حيث طغى على الجميع طوفانُ الإسرائيليات، الأمر الذي أفقدهم النظرة الواعية للنصوص القرآنية، تلك النظرة التي يتيه علينا بأنه يمتلكها، وعلى أساسها رَمَى بكل تلك الآراء القديمة.

وهذا واضح في كتابه منذ المقدمة كما جاء - على سبيل المثال - في

42 - انظر أبي آدم، ص ١١٥.

صفحات: ٧ وما بعدها، و: ٢٨، ٢٩، و: ٥٠ وما بعدها، و: ١١٩، وغير هذا من المواضع.

وكمثال على ما وقع فيه صاحب كتاب «أبي آدم» من تعميم في التشنيع على علماء الأمة قاطبة؛ أذكر شاهديْن اثنين فقط من كلامه، فيما يلي:

في معرض حديث المؤلف عن إمكانية التقاء العلم بالقرآن، يقول:

«نحن نرى أن ذلك ممكن من خلال فهم واعٍ للنصوص القرآنية .. فهم يخرج عن المذهب التقليدي الذي التزمت به التفاسير كلها، ويسعى إلى استنطاق النظم القرآني، ما دام هناك إمكان لالتقاء العلم بالقرآن» (٤٣).

فهو يرى أن كتبَ التفاسيرِ كلَّها ذاتُ مذهبٍ تقليديٍّ، غير واعٍ، لا يخدم في قضية التقاء العلم بالقرآن، ولذلك يجب الخروج عليه في فهم آيات التنزيل.

إن هذا والله لمنكر من القول وزور؛ أن يصم صاحب كتاب «أبي آدم» جميع كتب التفسير بما وصمها به، وإنها لدعوة هدامة تلك التي يدعونا إليها بالخروج على ما سطره علماء الأمة الأفذاذ في تراثهم العلميّ، خاصة كتب التفسير، وإذا لم نَقْتدِ بهدْي هؤلاء الأثباتِ فبهدْي مَنْ نقتدِي إذن ؟!

أنهتدي به في خيالاته المضحكة التي سوّد بها كتابه، عن المشروع البشري التحضيري لخلق الإنسان ؟!

---

43 ـ أبي آدم، ص ٥٠.

ثم: هل حَرَم اللهُ أمةَ سيدنا محمد ﷺ من مفسِّر واحد ـ على الأقل ـ يملك فهما واعيا للنصوص، قد خلا تفسيره من (المذهب التقليديِّ، الذي التزمت به التفاسير كلها) ؟!

إن هذا رجل مغرور، يرسل الكلام على عواهنه، وكأنه لا يدري ما يقول ..

ثم يعلق في بعض مواطن الكتاب على ما زعمه من وجود تفرقة بين (البشر) و (الإنسان)، قائلا:

«لقد خفيت هذه التفرقة على أجيال العلماء من قبل، سواء في ذلك القدماء والمحدثون، بعد أن طغى طوفان الإسرائيليات، وأصبحت المصدر الوحيد للحديث عن العالم القديم، والخلق» (٤٤).

فالعلماء جميعا ـ في نظره ـ كانوا أسارى الإسرائيليات، لدرجة أنه ـ في زعمه ـ لم يكن هناك مصدر للحديث عن قصة خلق آدم سواها !!

إن هذا لهو التجَنِّي والظلم المبين لعلماء هذه الأمة قديما وحديثا، وهو مجازفة في الأحكام، وتعميم خاطئٌ ومرفوض في ميزان البحث العلميّ.

إننا لا ننكر أن هناك بعضَ كتب التراث الإسلاميِّ حملت بين طياتها كثيرا من الروايات الإسرائيلية، والأحاديث الواهية، التي لم تثبت صحة نسبتها إلى رسول الله ﷺ .

---

44 ـ أبي آدم، ص ١١٩.

ولكن؛ هل يجهل صاحب كتاب «أبي آدم» أو يخفى عليه تلك الجهود الخارقة التي قام بها العلماء الراسخون في العلم، على مر العصور والأحقاب، لمناهضة ومقاومة الإسرائيليات، وما يتصل بها من الأحاديث الموضوعة، وتنقية مصادرنا الإسلامية القديمة والحديثة منها ؟

وهل من الإنصاف والعلم أن يصم كافة علمائنا، وجميع مصادرنا الإسلامية بأنها اعتمدت الإسرائيليات مصدرا وحيدا للحديث عن العالم القديم والخلق ؟!!

إنه لم توجد أمة من الأمم في حاضر التاريخ وسالفِه تحاكي الأمة الإسلامية أو تدانيها فيما قامت به من جهود لنقد المرويات والأخبار، وِفق منهج علمي دقيق، ومعاييرَ نقديةٍ صارمة.

وبعد هذا يأتي صاحب كتاب «أبي آدم» ليصمها بالغفلة، والنظرة التقليدية، والترديد التلقائيِّ للإسرائيليات، وتكرارها مِن «دون أدنى مناقشة، أو حتى توقف» [٤٥].

سبحان ربِّي !!

الاستشهاد بكتب لا تمثل آراء علماء الأمة في موضوع البحث

ويبدو أن مؤلِّف كتاب «أبي آدم» مُصرٌّ على تشويه صورة علماء الأمة الأقدمين، والحطِّ من قدرهم، حيث ذهب يستشهد على ما اتهمهم به من

---

45 ـ انظر أبي آدم، ص ٢٨.

تبنّيهم للإسرائيليات، وبأنهم ذوو رؤية ساذجة في فهم قصة الخلق الآدمي؛ ذهب يستشهد على هذا التشنيع والاتهام بعيِّنة من بعض الكتب التي لا يمكن لصاحب علمٍ منصفٍ محايدٍ أن يقول بأنها تمثِّل آراء علماء الأمة الإسلامية في الموضوع الذي معنا، وراح ينقل منها، تاركاً المصادرَ المعتمَدةَ الأصيلةَ المرموقةَ في تراثنا وثقافتنا الإسلامية.

وهذا المسلك غير البريء قد سلكه المؤلف منذ بداية الكتاب.

فقد قال في مقدمة الكتاب:

«فأما وجود الخليقة البشرية فهو المشكلة الكبرى التي تواردت عليها الرؤى، وتواترت الاجتهادات .. بدءاً من الرؤية الإسرائيلية، وقد كانت ذات حظ عظيم من حيث انتشارها، وتفردها على الساحة الفكرية، حتى وجدنا أكثر المفسرين للقرآن يرددون ما ذكرته الإسرائيليات ترديدا حرفيا .. دون أدنى محاولة تعرض مضمونها على العقل، وتغربل ما حفلت به من خرافات وأساطير.

وإلى القارئ جوهر القصة كما تلقيناها عن القدماء، وكما رواها صاحب قصص الأنبياء المسمى بالعرائس» ... إلخ ما ذكر [٤٦].

ثم جاء بعد نحو أربعين صفحة من كلامه السابق، ليذْكَر فصلا بعنوان: (نظرة القدماء إلى وجود الخليقة) [٤٧]، واختار عيِّنة من تصورات

46 ـ أبي آدم، ص ٧.

47 ـ أبي آدم، ص ٥١.

علماء السلف عن وجود الخليقة، فكانت تلك العينة عبارة بعض النقول من كتاب (المستطرف)، بالإضافة إلى نقل بعض الأساطير التي يرفضها علماء الإسلام قاطبة، ويقدَّم هذا - مع الأسف - على أنه يمثِّل وجهة نظر الأقدمين في موضوع الخلق» [٤٨].

فهل الكتابان اللذان قدَّمهما للقارئ يمثلان في الواقع وجهةَ نظر علماء السلف، وتصوّرَهم ومعتقَدَهم في موضوع قصة الخلق ؟

إن الكتاب الأول وهو (عرائس المجالس) للثعالبيّ، ليس المصدرَ الذي يمثل الاعتقاد الإسلاميَّ في قصة الخلق، لأنه كتاب فيه كثير مما ينكره علماء المسلمين أنفسهم، فكيف يجهل المؤلف هذا الأمر ؟!!

وأما الكتاب الثاني وهو (المستطرف في كل فن مستظرف) للأبشيهيّ؛ فإنه كتابُ أدبٍ ومُلَح، لا يجوز بحال من الأحوال أن يُقدَّم على أنه نموذج لجميع كتب العلماء الراسخين قديما، في احتوائه على معتقدهم في قصة خلق آدم، وتصوّرِهم للغابرين من بني الإنسان في بداية وجود الخليقة على وجه الأرض.

إن آراء علماء المسلمين الحقيقية في هذا الموضوع وفي غيره تؤخذ من الكتب الأصيلة المعتمدة، مثل كتب التفسير المعروفة ببعدها عن الإسرائيليات، ومنها كتاب: (تفسير القرآن العظيم)، للحافظ ابن كثير، ومثل شروح كتب السنة التي تلقتها الأمة بالقبول، ومنها (فتح الباري

---

48 - انظر السابق ص ٥١ : ٥٦ .

بشرح صحيح البخاري)، للحافظ ابن حجر العسقلاني، و (صحيح مسلم بشرح النووي)، بالإضافة إلى كتب العقائد، قديمها وحديثها ..

هذه هي مصادر التصور الإسلامي.

ولذلك لا أكون متجنيا على صاحب كتاب «أبي آدم» إذا قلتُ بأن مسلكه هذا الذي تبناه في تصوير رؤية علماء السلف؛ إنما هو مسلك غير بريء، وغير منصف، وغير علميٍّ.

إنه يسلك طريق المستشرقين المغرضين ومنهجَهم عندما يخوضون في دراسة الإسلام وقد عقدوا العزم على ترك الإنصاف والموضوعية، فنجد أحدهم يعمد إلى كتاب «الأغاني» ونحوه، ويقدمه على أنه يمثل خلاصة التصور الإسلامي، وهو أبعد ما يكون عن هذا الأمر باتفاق الراسخين في العلم.

لقد كان على صاحب كتاب «أبي آدم» أن يذهب إلى المصادر المعتمدة التي أشرنا إلى بعضها، لا أن يذهب إلى كتب غير أصيلة، ولا متخصصة في الموضوع، ويدلِّسَ على القارئ لكتابه، ويخادعَه ويوهمَه بأنه رجع إلى المصادر الأصيلة !!

ردُّ ما صحّ من الروايات بدعوى مواجهة الإسرائيليات

ثم إن المؤلف يأتي إلى الرواية التي لا تعجبه، أو يراها تقف في طريقه فيردُّها، زاعما أنها من الإسرائيليات التي لا توافق العقل.

فهل هذا يجوز في شرع الله، أو يتمشى مع الأعراف العلمية والمنهجية؟

وهذا مثال على صنيعه المرفوض، ومسلكه المعيب، حيال بعض ما صحّ من الروايات عن النبي ﷺ، على النحو التالي:

في معرض زعمه وقوله بأن: «أكثر المفسرين للقرآن يرددون ما ذكرته الإسرائيليات ترديدا حرفيا .. دون أدنى محاولة تعرض مضمونها على العقل، وتغربل ما حفلت به من خرافات وأساطير» [٤٩]؛ نرى المؤلف يخلط الحابل بالنابل، ويورد جزءا من حديث ثابت عن رسول الله ﷺ، في موضوع خلق آدم، وأنا أذكر نصَّه من مصادره، ثم أذكر تخريجه مع حكم العلماء عليه، فيما يلي:

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ اللهَّ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الْأَرْضِ: جَاءَ مِنْهُمُ الْأَحْمَرُ، وَالْأَبْيَضُ، وَالْأَسْوَدُ، والأصفر، وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالسَّهْلُ، وَالْحَزْنُ، وَالْخَبِيثُ، وَالطَّيِّبُ» [٥٠].

أورد صاحب كتاب «أبي آدم» طرفا من هذا الحديث الصحيح، ثم

---

49 - أبي آدم، ص ٧.

50 - رواه أبو داود في ك السنة ب في القدَر ٢/ ٤١٥ رقم ٤٦٩٣، والترمذي في ك التفسير ب ومن سورة البقرة ٤/ ٤٤٤ رقم ٢٦٩٥، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، وأحمد في المسند ج ٣٢ ص ٣٥٣ و ٤١٣ رقم ١٩٥٨٢ و ١٩٦٤٢، والحاكم في المستدرك ٢/ ١٦١- ١٦٢ وقال: حديث صحيح الإسناد، ووافقه الذهبيّ في التلخيص، وابنُ حبان في صحيحه ك التاريخ ب بدء الخلق ١٤/ ٢٩ رقم ٦١٦٠، والبيهقيُّ في السنن الكبرى ك السِّيَر ب مُبْتَدَأِ الْخَلْقِ ٩/ ٦ رقم ١٧٧٠٨، والبزارُ في مسنده ٨/ ٤٢ رقم ٣٠٢٦.

طفق يعلِّق بأسلوب نازلٍ ركيك، قائلا :

«ويستمر الكلام في هيئة (سيناريو) .. يصف لنا ما جرى في ذلكم الأزل الآدمي، فيجعل التراب خليطا من ألوان الأرض، ليكون أبناء التراب على ألوانها المختلفة، وخليطا من أنواع التراب إشارة إلى تنوع الأخلاق ... وهكذا ...

كل ذلك مضى في الغيب، فكيف اطلع عليه هؤلاء القصاص من بني إسرائيل ؟!! »(٥١).

ألهذا الحدِّ يُعمِي الهوى صاحبَه عن قولة الحق والإنصاف ؟!!

إن هذا الحديث الذي يتهكم عليه المؤلف - ولا حول ولا قوة إلا بالله - ليس من قِصص بني إسرائيل؛ بل هو حديث صحيح - كما تبين في تخريجه -.

ولو أن صاحب كتاب «أبي آدم» كلف نفسه عناء النظر في أصل الرواية وسندها، وحالها من الصحة أو عدمها؛ لتكشفت له الحقيقة.

ولكن أنَّى له ذلك وهو متشبع بفكرة خيالية، وضع رأسَه فيها، أو وضعها في رأسِه، ثم صمم على أن يزيح من طريقه كلَّ ما لا ينسجم معها ، حتى ولو كان حديثا صحيحا، دون تورّع منه، أو تجمّل.

وقوعه فيما يتهم به علماء الأمة

وفي الوقت الذي يُوسِع فيه صاحبُ أسطورة «أبي آدم» علماءَ الأمة تشنيعا عليهم، واتهاما لهم بترديد الإسرائيليات؛ نراه يقع في هذه

51 - أبي آدم، ص ٩.

الشناعة، ويضيف إليها شناعة أخرى لا تليق بباحث مثله، وهي ترديد الأحاديث الموضوعة.

إنه يتهم المفسرين بالوقوع في طوفان الإسرائيليات، بينما يقع هو فيها عندما يتبنى الفهم التوراتي المحرَّف، ويروِي أن آدم وحواء اختبآ مِن الله تعالى في الجنة، حينما أكلا من الشجرة، فيقول:

«وركبهما الندم من هذا التعرِّي أمام الله، فأخذا يحاولان التخبؤ والاستتار حياء منه وخجلا، وذلك بأن يتخذا من ورق الجنة غطاء يسترهما، وكأنهما يهيلان عليهما هذا الورق» [٥٢].

إن هذا الذي قال به المؤلف هو ما تضمنته رواية (العهد القديم)، حيث جاء فيها:

«وسمعا صوت الرب الإله ماشيا في الجنة عند هبوب ريح النهار، فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله في وسط شجر الجنة، فنادى الربُّ الإلهُ آدمَ وقال له: أين أنت» [٥٣].

وبينما يرُدُّ صحاح الأحاديث في تهكم وسخرية، كما فعل مع حديث «إِنَّ اللهَّ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ» الذي أوردناه قبل قليل؛ نجده يورِد ما لا أصل له من كلام النبوة، ويسوقه على أنه حديث، ويمضي في صمت دون أن يعقب.

---

52 ـ أبي آدم، ص ١٦٩.

53 ـ سفر التكوين ٢/ ١ـ٣.

فقد ذكر المؤلف في موضعين من كتابه ما اعتبر أنه حديث قدسيٌّ يقول الله عز وجل فيه عن نفسه ـ بنصِّ كلام المؤلف ـ: «كنت كنزا مخفيا، فأردت أن أُعرَف، فخلقتُ الخلق، فبي عرفوني» ـ أو كما قال» (٥٤).

وإذا رجعنا إلى ما ذكره المحققون من أهل العلم بشأن هذا الذي زعمه حديثا قدسيا؛ سنجد أنهم أكدوا على أنه لا أصل له، ولا هو من كلام الله تعالى، ولا كلام رسوله ﷺ.

قال ابن تيمية رحمه الله: ومما يروونه [أي القصاص] عنه [أي النبي ﷺ] أيضا: «كنتُ كنزا لا أُعرَف، فأحببتُ أن أُعرَف فخلقتُ خلقا فعرّفتهم بي فعرفوني».

ليس هذا من كلام الله، أو النبيِّ ﷺ، ولا يُعرَف له إسناد صحيح، ولا ضعيف (٥٥).

---

54 ـ أبي آدم، ص ٥ ، ٦١.

55 ـ علم الحديث، ابن تيمية، ص ٥٢٥، تحقيق موسى محمد علي، عالم الكتب – بيروت، ط الثانية ١٤٠٥هـ ١٩٨٤م.

وانظر في نفس الموضوع: تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة لأبي الحسن علي بن عراق الكناني ١/ ١٤٨، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، عبد الله محمد الصديق، دار الكتب العلمية – بيروت، ط الثانية ١٤٠١هـ ١٩٨١م، المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، الحافظ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، ص ٣٢٧، دار الهجرة – بيروت ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م، تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث، العلامة عبد الرحمن بن علي بن محمد بن عمر الشيباني الشافعي، ص ١٢٦، دار الكتاب العربي – بيروت. =

فماذا يقول الباحثُ المتعالِمُ صاحبُ أسطورة «أبي آدم» ؟!

تطاول وتهكم على مخالفيه

إن مما يلفت نظر القارئ لكتاب «أبي آدم» ما يكتنف صاحبَه من تعالم، وتظاهر بالثقة المفرطة، والنظر بغير احترام ـ مع الأسف ـ إلى كلِّ مَن يخالفه الرأي، أو يعارضه فيما تَصوَّره من خيالات، وما ضمَّنه كتابه من مجازفات، بل وصل به الحال إلى وصف معارضيه بما لا يليق أن يصدر من باحث في وزن الأستاذ الدكتور «عبد الصبور شاهين»، الذي لا يخفى عليه ما يجب أن يتحلى به المسلم الباحث من حياد، وتجرد في سبيل الوصول إلى الحق، وتحرِّي النزاهة، والتحلِّي بعفة اللسان مع الناس عامة، والمسلمين خاصة، وإخوانه العلماء والباحثين على وجه أَخَصّ.

وأترك للقارئ أن يتأمل كلامه بنصه وحروفه، إذ يقول ـ في مقدمة الطبعة الثانية للكتاب ـ:

«حين صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب (أبي آدم) أحدثت من الدوِيّ ما يُحدِثه سقوطُ صخرةٍ ضخمةٍ في بِرْكةٍ آسنة، وانبعث من قلب البركة ـ أو المجتمع ـ أناس يتصدون للكتاب ولمؤلِّفه، ظانِّين أنَّ بوسعهم أن يخفتوا صوته، ويخفوا أثره، بالتشويه والتجريح، وعلم الله أنهم لم

= وقد أجمعت هذه المصادر كلُّها على أن هذا الكلام لا أصل له، وأنه ليس بحديث نبويٍّ أو قدسيّ.

يكونوا يملكون فكرا قادرا على استيعاب مضمون الكتاب» [٥٦].

ويستمر في التعريض بمخالفيه، والتطاول عليهم، والحطِّ من أقدارهم .. إلى أن يقول:

«وعادت الكائنات التي انبعثت من قلب البركة الآسنة إلى قاعها في انتظار صخرة أخرى» [٥٧].

ويدّعي أن ظهور كتابه كان نعمة على بعض الكاتبين الذين ردوا عليه، حيث إنه لولا ظهور الكتاب ما كتبوا شيئا، فيقول: «فلو لم يصدر لما كتبوا ـ فليحمدوا الله على نعمة ظهوره» [٥٨].

ثم يتهم معارضيه بالتلقائية وعدم التفكير، عندما يرفضون أسطورته التي تفرد بها في التاريخ الإسلاميِّ كله، إذ يقول:

«ليس غريبا أن نتصور ـ بناء على هذا ـ أن آدم جاء مولودا لأبوين، وأن حواء جاءت كذلك، على الرغم مما سوف يلقى هذا التصور من معارضة تلقائية، ورفض عنيف !! وبلا تفكير !! » [٥٩].

أيُّ أسلوب هذا الذي ارتضى لنفسه أن يتكلم به المؤلف ؟!!

وهل كل من تصدى لخيالاته لم يكن يملك فكرا قادرا على استيعاب مضمون كتابه ؟ !!

---

56 ـ أبي آدم، ص ١٩.

57 ـ السابق، ص ٢٠.

58 ـ أبي آدم، ص ٢٤.

59 ـ السابق، ص ١٢٢.

هل خصه الله تعالى بنعمة الفهم وحده، وحَرَم باقي الناس - علمائهم وعامتهم - منها ؟ !!

وإذا كان كلُّ مَن عارضه متَّهَما بأنه غير قادر على استيعاب ما سوّد به صفحات كتابه من خيال جامح؛ فلمن يكتب إذن ؟!

وهل من المنهج العلميِّ التعميم في اتهام معارضيه بعدم التفكير والرد التلقائي على أحكامه الجزافية ؟!

وبأنهم كائنات منبعثة من بِرْكة آسنة ؟!!

إن هذا يعَدُّ من قبيل الإرهاب الفكريِّ لمن يفكر في معارضته ..

وهو لون من ألوان الحرب النفسية التي يشنها ضد مخالفيه، طامعا في أن تُكْسِبه ما لن يحصل عليه لو جادل بالتي هي أحسن؛ حيث إن قضيته خاسرة.

وغرورٌ وتعالم ..

وخروج عن اللياقة ..

وكل هذا مرفوض في ميزان البحث العلميّ ..

ومرفوض من قبلُ في شرع الله، الذي من تعاليمه قول الحق سبحانه: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣]، ومن آدابه وأخلاقه التي ألزم بها عباده المسلمين: التواضع، وعدم غَمْطِ الناس.

ألا ما كان أحراه أن يتأدب مع مخالفيه بمثل قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ

عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [سبأ: ٢٤ـ٢٥] .

لا بأدب (البركة الآسنة)!!

ثم ليسمح لنا بأن يشرح لقراء كتابه عبارته الفذة التالية: «وبهذا تكون الحقيقة الترابية أثبت الحقائق وأبرزها في وجود كل مخلوق يدخل في مضمون الضمائر (أنا ـ ونحن ـ وأنتَ ـ وأنتِ ـ وأنتم ـ وأنتن ـ وهو ـ وهي ـ وهما ـ وهم ـ وهن)، وخبرها جميعا (من تراب): ﴿صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾» (٦٠).

وهل كان يملك قدرا من الشجاعة الأدبية، وشيئا من الإنصاف ليقول للقراء بأن هذا كلام يكتنفه الغموض، ويلفّه الإبهام والتّيهان ؟

طوبى لمن شغله عيبُه عن عيوب الناس

لقد كان أولى بمؤلّف كتاب «أبي آدم» أن يتجافى عن الغرور، وأن يترك النيل من مخالفيه، ورمْيَهم بعدم فهم واستيعاب مضمون كتابه، وأن يُهوِّن على نفسه، ويتواضع لله، وأن يفتش في عيوبه أولا ..

أجل .. فكتابه يطفح بالأخطاء العلمية، والمنهجية، والشكلية، بدءً من العنوان، وحتى آخر ما سطرت يداه، وبحثنا هذا وغيره قد كشف عن كثير من أخطائه .. فلَيْتَه طامَن مِن كبريائه، وعاد إلى صوابه.

وبمناسبة ذِكر العنوان؛ فإن عنوان الكتاب وهو: (أبي آدم .. قصة الخليقة بين الأسطورة والحقيقة) عنوان غير دقيق في إطلاقه على الموضوع

60 ـ أبي آدم، ص ١٢٣.

الذي يتضمنه.

إن المؤلِّف ضَمّن العنوان عبارة (قصة الخليقة)، وموضوع الكتاب إنما هو عن خلق آدم عليه السلام، وبداية ظهوره، ونشأة الحياة الإنسانية على وجه الأرض، وليس الموضوع عن نشأة الكون بما فيه، ومَن فيه .. ولو كان كذلك لكانت عبارة (قصة الخليقة) مناسبة، أمَا وأنّ الموضوع عن خلق آدم، دون بقية المخلوقات من طير، وحيوان، وبحار، وجبال، وأنهار، وملائكة، وأرض، وسماء ... إلخ؛ فيكون تضمينُ العنوان عبارة (قصة الخليقة) غيرَ مناسب.

ثم لماذا ينسي المؤلِّف أخطاءه العلمية مثل الحكم على أحاديث صحيحة بأنها من الإسرائيليات، والحكم على أقوال سائرة بأنها من الأحاديث الصحاح ـ وهو ما أثبتناه فيما مضى من هذا البحث ـ ؟

لا أريد أن أطيل في هذه الجزئية ـ مع أن لديَّ فيها كلاما كثيرا ـ وسأنتقل إلى غيرها، إذِ البحث كله كشف عن أخطاء المؤلِّف وخيالاته، ولكن أودّ ـ من باب الترويح على القارئ ـ أن أنقل هذه السطور مما فاض به خيال صاحب كتاب «أبي آدم» حول تناسل إبليس وذريته.

قال المؤلف: «... فقد نتصور أن طبيعة إبليس النارية تقبل التكاثر بما يشبه الانقسام، فيحدث عند احتدام حقده تولد الشرر، فيكون من كلِّ شرارة شيطان وليد، يكبر برعاية أبيه، ويبقى إلى أجله المسمى» [٦١].

وأترك التعليق للقارئ ..

---

61 ـ أبي آدم، ص ١٨٢.

الكتاب منتفخ بالحشو والاستطراد

ويبدو أن المؤلف أراد أن يوهم القارئ لكتابه من أول وهلة بأنه قد اجتهد في جمع الأدلة والبراهين الكثيرة على إثبات فكرته، ما أدى إلى كثرة صفحاته التي بلغت المائتين، ولكن الواقع أنه اجتهد في الحشو والاستطراد، وذِكْرِ ما لا علاقة له بالموضوع في أماكن عديدة، والتفصيل الممل، والتكرار الكثير والملحوظ لما يعرضه، من غير داعٍ لذلك كلِّه ..

فالفكرة التي يمكن عرضها في نحو خمسة أسطر؛ قد يعرضها هو في نحو عشرين سطرا، فهو لا يفتأ يذكر الفكرة مرة بعد أخرى، ثم يشطح بعيدا عن الموضوع، ثم يعيد ما قاله مرات ومرات .. وهكذا.

ويظهر - كما قلتُ - أنه قصد إلى هذا التهويل.

ولذلك لا نكون موغلين في المبالغة إذا قررنا بأنه كان يمكن للكتاب أن يُختصَر إلى ثلث ما هو عليه من الصفحات.

وكأمثلة على هذا الحشو والاستطراد؛ أُحيل القارئ إلى مراجعة الفصل الثاني من الباب الأول من كتاب «أبي آدم»، ص ٣١ وما بعدها، وص ٤٧، وكذلك الفصل الذي يليه، وص ٦٧ - ٦٩، وكذلك الفصل الأول من الباب الثاني ص ١٢٧ وما بعدها، وص ٧١ - ٧٣، وص ٧٧ - ٨٢ ... وغير هذا كثير في كتابه، فضلا عن تكراره الدائم لتصوراته وأفكاره .. وكلُّ هذا في جوٍّ من التعالم، والإعجاب بالنفس !!

وربُّنا المعافِي.

عبارات غير لائقة بمقام الألوهية

وفي غمرة إعجاب المؤلف بنفسه تخونه العبارات أحيانا، فيذكر بعض الكلمات التي لا تليق بالذات الإلهية، ولا تناسب وصف المشيئة الربانية، ومنها ـ على سبيل المثال ـ قوله:

«هكذا بدأ العهد الآدمي في ملحمة الخليقة» [٦٢].

«لقد كانت ملحمة هائلة !! تلك التي استغرقها خلق البشر وتسويته، وتزويده بالملكات العليا التي أصبح بها (إنسانا)» [٦٣].

«... تمهيدا للمرحلة التالية من الملحمة الوجودية، مرحلة الحساب والجنة والنار، والخلود فيها» [٦٤].

وقوله: «وهنا دخل آدم إلى مسرح الحوار (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ) » [٦٥].

«يالها من قدرة هائلة؛ تابعت عملية الخلق خلال هذا الزمن المتطاول !! وياله من إنجاز رائع تجلى أعظم تجلٍّ في شخص آدم الرسول الذي تفوق على ملائكة الرحمن !! » [٦٦].

لقد كان يجب على المؤلف ـ وهو من المتخصصين في علم اللغة ـ أن

---

62 ـ أبي آدم، ص ١٢٣.

63 ـ السابق، ص ١٠٧.

64 ـ أبي آدم، ص ١٢٢.

65 ـ السابق، ص ١٤٥.

66 ـ أبي آدم، ص ١٤٥ـ١٤٦.

يستخدم ألفاظا وتعبيرات أنسبَ، وأكثرَ لياقة بمقام الألوهية مما استخدمه.

وعلى سبيل المثال؛ كلمة «ملحمة» التي أُغرِم بها المؤلف، وكررها في غير موضع، معناها ـ وهو أحد العارفين ـ كما في كتب اللغة:

«الحرب الشديدة، وموضعها.

أو عمل قصصيٌّ له قواعد وأصول، يُشاد فيه بذكر الأبطال والملوك وآلهة الوثنيين، ويقوم على الخوارق والأساطير، وقد يكون شعرا كالإلياذة عند الإغريق، والشاهنامة عند الفرس، وقد يكون نثرا كسيرة عنترة» (٦٧).

فهل هذه عبارة مناسبة لوصف مشيئة الله وقدرته التي قضت بإيجاد آدم وخلقه مِن عدم ؟!!

وهل من اللائق وصف ما جرى في الملأ الأعلى من سؤال الله الملائكةَ بأن تُنْبِئ عن أسماء الموجودات، ثم جوابهم لله تعالى، ثم أمْرِ الله تعالى آدم بأن يُنبئهم بتلك الأسماء، وإجابة آدم بما علَّمَه ربُّه، وهو ما تضمّنه قوله عز وجل: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا

---

67 ـ المعجم الوسيط ٢/ ٨٥٢ ـ ٨٥٣، مجمع اللغة العربية في القاهرة، ط الثالثة.

كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [سورة البقرة: ٣١ – ٣٣] .. هل يليق أن يُوصَف ذلك المشهد القدسيُّ المهيب، ويُقال عنه كما قال المؤلف «مسرح الحوار» ؟!!

وهل من اللائق أن نصف خلق الله لآدم بشرا سويا، بأنه «إنجاز رائع» ـ كما ذكر المؤلف ـ ؟!!

أو بأنه «يمكن تشبيهه بهندسة البناء وتجميله» ـ كما ذكر في موضع آخر ـ [٦٨] ؟!!

إن مثل هذه الأساليب والتعبيرات لا مكان لها في مقام الحديث عن ذات الله وصفاته القدسية، وأعماله الحكيمة، وهي أليق بالروايات والأعمال القصصية، ولئن جاز أن تَجْرِيَ على ألسنة العامة؛ فالأجدر بأهل العلم أن يترفعوا عنها، وأن يكونوا قدوة حسنة مُلْهِمة للصواب.

ادّعاءُ المؤلفِ أن فكرته قائمة على الكتاب والسنة

إن صاحب كتاب «أبي آدم» يدّعي أنه سلك في إثبات دعواه وفكرته التي ضمّنها كتابَه مسلكَ الاعتماد على آيات القرآن الكريم، ويزعم أن ما استنتجه من القرآن مُمَثَّلا في فكرته غير متعارض مع الكتاب والسنة، حيث يقول:

«إن هذا البحث قائم على ركيزة الآيات المنزلة ..

وهو لم يخرج قيد أنملة عن المعنى القرآني ..

وهو لا يتناقض في نتائجه مع أيّ حديث صحيح في السنة المحمدية

68 ـ أبي آدم، ص ١١٠.

.. أكان ذلك نصًّا أم تأويلا» [٦٩].

وقال أيضا: «لقد كان جل اعتمادنا في عرض قصة الخليقة على استنطاق آيات القرآن، باعتبارها المصدر الأول والأوثق الذي ينبغي اعتماده في هذا المجال، واستعنّا بقليل من حديث رسول الله ﷺ، مما ساعدنا على جلاء المعنى القرآني» [٧٠].

والواقع أن ادعاءه هذا ـ في نظري ـ فرية واسعة، ودعوى غير صادقة.

إن الحقيقة أنه لا القرآن ولا السنة يؤيدان أفكار المؤلف في كتابه، ولقد كان تعامله مع الآيات قائما على التأويل المتكلَّف، والتعسُّفِ في استخراج ـ أو إن شئت فقل: اختراع ـ المعاني التي تؤيده، دون التفات إلى أية ضوابط شرعية أو لغوية في التأويل والتفسير لآيات الكتاب العزيز، كما أنه تجاهل كل آية أو حديث ينسف فكرته، بأساليب ملتوية، وسوف يأتي مزيد بيان لهذا الأمر بعد قليل.

وإذا كان القرآن يؤيده في فكرته، وأن ما توصل إليه لا يتناقض مع أي حديث صحيح في السنة، سواء أكان نصًّا أم تأويلا ـ كما ذكر ـ؛ فكيف أحاط الغموض بموضوعه الذي طلع به علينا، حتى خَفِيَ عن الأمة كلِّها منذ عصر النبوة، إلى يوم الناس هذا ؟!!

ما دامت فكرته الخيالية حول البشر والإنسان ـ على نحو ما لخصناها

---

69 ـ أبي آدم، ص ١٧.

70 ـ أبي آدم، ص ١٢.

سابقا ـ تحظى بتأييد القرآن لها، وكذلك السنة بمفهومها ومنطوقها؛ فما الذي دَهَى علماءَنا وأصابهم على مر القرون منذ زمن الصحابة وإلى عصرنا الحاضر، وأفقدَهم القدرةَ على فهمها واستيعابِها، واعتقادِها، ثم النصِّ عليها في كتبهم، وشرحِها وتوضيحِها للمسلمين ؟!!

كيف لم يعرفها جهابذة الأمة وعباقرتها من أمثال حبر الأمة «ابن عباس»، وأعلمها بالقرآن «ابن مسعود»، وأعلمها بالحلال والحرام «معاذ ابن جبل»، ثم «سعيد بن جبير»، و«سعيد بن المسيب»، و«الحسن البصري»، و«مالك» إمام دار الهجرة، و«الشافعيّ»، و«ابن حنبل»، و«أبي حنيفة»، و«ابن حزم»، و«ابن تيمية»، و«ابن حجر»، و«النوويّ»، و«ابن رجب»، و«الطبريّ»، و«القرطبيّ»، و«ابن كثير»، و«ابن العربيّ»، و«الرازيّ»، و«السيوطيّ»، و«الغزاليّ»، و«ابن قدامة»، و«الطحاويّ»، و«الآلوسيّ»، و«الشوكانيّ»، و«أبي زهرة»، و«الشعراويّ» ... وغيرِهم وغيرِهم ممن نعرف، وممن لا نعرف من أهل العلم، على مدى أربعة عشر قرنا من الزمان، في سالف الأيام وحاضرها ؟!!

خروج المؤلف على إجماع الأمة قديما وحديثا

والحق أن ما تخيله المؤلف من وجود فروق بين (البشر) و (الإنسان) ـ على نحو ما سطر في كتابه ـ؛ قد تفرد هو وحده به، ولم يكن له سلف في القول بما قال، بالإضافة إلى أنه لا يوجد ما يؤيده من القرآن أو السنة، في فكرته الخيالية.

والواقع أنه قد خرج على إجماع الأمة بشأن ما فهمته، وتتابعت عليه أجيالها في قصة خلق آدم ﷺ، بل إنه نفسَه كثيرا ما يذكر أنه يخالف جميع المفسرين، بل يعترف صراحة أن ما تصوَّره بشأن التفريق بين (الإنسان) و (البشر) قد خفي على أجيال العلماء جميعا؛ قديمِهم ومحدَثِهم، إذ يقول ـ في نصٍّ أوردناه عنه سابقا ـ:

«لقد خفيت هذه التفرقة على أجيال العلماء من قبل، سواء في ذلك القدماء والمحدثون، بعد أن طغى طوفان الإسرائيليات، وأصبحت المصدر الوحيد للحديث عن العالم القديم، والخلق» [٧١].

وكثيرا ما يضع نفسه في جهة مقابلة لجميع المفسرين، متهما إياهم بأنهم أصحاب مذهب تقليدي، أو فهم ساذج، ويرُدُّ ما أجمعوا عليه في تبجح، قائلا: «أما نحن فنرى .. نتصور .. نجتهد .. »، ونحو هذا من العبارات، وهذا في غير موضع، وغير مناسبة في كتابه [٧٢].

فالظاهر أنه مولَع بالخروج على إجماع الأمة، مع رميه لمن يخالفه بما لا يليق من الأوصاف والاتهامات، والحط من شأنه، ولو خالفَ أهل العلم أجمعين.

والذي يجب أن يعلمه ويتنبه إليه صاحب أسطورة «أبي آدم» أن الأمة

---

71 ـ أبي آدم، ص ١١٩.

72 ـ انظر ـ على سبيل المثال ـ صفحات: ٥٠ ، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٧ ، ١٥١، ١٥٢ ، ١٦٤، ١٦٨ ، ١٦٩ من كتاب «أبي آدم».

الإسلامية قديما وحديثا قد أجمعت على أن (آدم) هو أبو البشر، وأن البشر هو الإنسان، والإنسان هو البشر، وأن آدم قد خلقه الله من طين، وليس من أب وأم - كما ذهب إليه خياله -، واستمر هذا الإجماع أربعة عشر قرنا من الزمان.

وقد صحّ عن النبي ﷺ - بما يبلغ حدّ التواتر المعنوي - الإخبارُ بأن الأمة الإسلامية لا تجتمع على ضلالة، وأن الله تعالى قد عصمها من أن تُجْمِع على الخطأ والباطل، وتتواطأ عليه، وقد جاء هذا المعنى في أحاديث كثيرة عن عدد من الصحابة، ومِن هنا كان الإجماع حجة ودليلا معتبرا مِن أدِلَّة الفقه الإجمالية.

عن ابن عمر رضي الله عنهما، أنّ رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللهَّ لَا يَجْمَعُ أُمَّتِي - أَوْ قَالَ: أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ - عَلَى ضَلَالَةٍ، وَيَدُ اللهَّ مَعَ الجَمَاعَةِ» (٧٣).

وعلى هذا فلا اعتبار لشذوذ صاحب كتاب «أبي آدم» بما كتب، وبخروجه على إجماع علماء أمة سيدنا محمد ﷺ قاطبة، مهما ادعى وزعم أن ما جاء به لا يتعارض مع قرآن، أو سنة صريحة أو مؤولة.

حقيقة المنهج الذي اتبعه في إثبات فكرته

والواقع أن صاحب كتاب «أبي آدم» قد تشبع بفكرته التي تخيلها، ولم يكن متجردا، وبدا واضحا - من خلال ما كتب - التحيز لرأيه، وعدم الانقياد لما تَهدي إليه الأدلة من القرآن الكريم، وأحاديث الرسول ﷺ.

---

73 - رواه الترمذي في ك الفتن ب ما جاء في لزوم الجماعة ٤/ ٤٦٦ رقم ٢١٦٧.

أما حقيقة المنهج الذي سار عليه وجوْهره؛ فيتلخص في أنه يعوِّل على العقل في المقام الأول، جاعلا النصَّ تابعا للعقل، ثم يلتمس ما يؤيِّد العقلَ من النصوص، فإن وجد سبيلا إلى ذلك فبها، وإلا فإنه لا يتردد في إخضاع النقل إلى العقل إخضاعا متعسفا، حتى ولو خرج على جميع الضوابط الواجب مراعاتها في فهم وتفسير القرآن والسنة، وخالف أهل العلم كلّهم، ونتج عن هذا أحكام يكتنفها الخَطَل، ويخامرها البطلان، وقد تجلّى هذا المنهج في مظاهر عديدة، منها:

- الاعتماد على التأويل الفاسد لآيات القرآن الكريم، وصرفها عن ظواهرها، دون أدنى مسوِّغ، وتأسيس أحكام بناء على تأويلات لا تسندها أية قرينة على الإطلاق.

وإذا كان هناك نصٌّ قرآنيٌّ هادم لفكرته ولم يستطع تأويله - بطريقته في التأويل الفاسد - تجاهله، كما فعل مع قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [سورة الرحمن: ١٤]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [سورة آل عمران: ٥٩]، فقد تجاهل الآيتين الكريمتين تماما، ولم يُشِرْ إليهما من قريب أو بعيد؛ لأنهما تهدمان أسطورتَه مِن القواعد.

أما الأحاديث فلم يورد منها إلا بضعة أحاديث لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة، وهي لا يمكن أن تكون مصدر دلالة على ما ذهب إليه، بل بعضها خارج عن الموضوع، وقد جعل بعض الأحاديث التي تعارض

فكرته صراحة من الإسرائيليات زورا منه وافتراءً على السنة الصحيحة، وقد سبق أن ذكرنا أمثلة لهذا الصنيع الممقوت من جانبه.

ـ يضاف إلى هذا أنه يتلاعب بقواعد اللغة العربية، والاستخدامات اللغوية للأدوات النحوية، مثل (ثم) و (الفاء)، ويستنطقها ما لم ولن تنطق به أبد الدهر، وسوف يأتي مزيد بيان وتفصيل لهذا عند مناقشة ما زعمه أدلة على خيالاته.

ـ ومن مظاهر منهجه كذلك الإكثار من الافتراضات العقلية، والتصورات الذهنية، وتقديمها على أنها هي الحقائق البديلة لما أجمع عليه المفسرون والعلماء في مسألة من المسائل التي يتعرض لها، والأخطر أنه يسوق هذه الافتراضات ويجعلها بمثابة إخبار عن أمور غيبية، لم يشاهدها هو ولا أحدٌ من الخلق، ولم يخبر الله بها أحدا، كافتراضاته وتخيلاته حول المرحلة البشرية وما يتصل بها من تفاصيل ـ على نحو ما ذكرنا في الفصل الأول من بحثنا هذا ـ.

وقد سبق أن أشرنا إلى أنه قد رجع إلى مراجع غير معتمدة ولا موثوقة في الموضوع محل الدراسة، وعمد إلى إيهام القارئ أنها مصادر أصيلة، ما يُعدُّ ـ مِن وجهة نظرنا ـ خدشا في أمانته العلمية التي هي ركيزة مِن ركائز منهج البحث العلميّ السليم[٧٤].

والخلاصة أنه منهج قائم على التخيلات العقلية، وإخضاع النصوص

74 ـ انظر ص ٣٦ مِن هذا البحث.

المعصومة لها، وإن كانت لا تتحمل ما يريد تحميلها إياه لا شرعا ولا لغة، ولا على أي وجه على الإطلاق.

هذه ملامح منهجه، وهو منهج لا يصلح في معالجة قضية الخلق الغيبية المحضة، والتي لا يُتكلّم فيها إلا بالاعتماد على النقل والسماع الصادق الذي ثبت عن النبي ﷺ، لأنها في نهاية المطاف إخبار وشهادة عن أمور غيبية، ولا يجوز لأحد أن يخبر عن غيب إلا بما يعلم من طريق النقل الشرعيّ المعتبر، وإلا فإنه يخبر بما لا يعلم، ويقول على الله بغير علم، والله عز وجل قد حرّم القول عليه سبحانه بغير علم، حيث قال جلّ شأنه: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

من صور التأويلات الفاسدة عند المؤلف

وهذه بعض النماذج لما قام به صاحب كتاب «أبي آدم» من التأويلات التي ما أنزل الله بها من سلطان:

١ـ سجود الملائكة لآدم

أخبر الله عز وجل في القرآن المجيد بأنه سبحانه قد أمر الملائكة بالسجود لآدم ﷺ، فسجدوا، وتخلف إبليس عن إجابة أمر ربه، واستكبر عن السجود لآدم، وهذا الأمر قد ورد صريحا في آيات ومواضع عديدة من القرآن الكريم، وأحاديث صحيحة من سنة الرسول ﷺ ـ كما لا يخفى ـ.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ

أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [سورة البقرة: ٣٤].

وقد أورد صاحب كتاب «أبي آدم» كلاما للأستاذ «البهيّ الخولي» رحمه الله، متضمِّنا آراء العلماء حول المراد بالسجود لآدم، وخلاصتُه: أن سجود الملائكة لآدم لم يكن سجود عبادة ونسك، وإنما كان سجودا فيه معنى التحية والمودة، وخفض الجناح، والإقرار بالفضل.

بعد أن أورد هذا الكلام عن الشيخ «البهيّ الخولي»؛ عقّب عليه قائلا:

«والواقع أن الموقف لم يكن بحاجة إلى هذا العناد لتفسير السجود بالتذلل، أو خفض الجناح، أو الإقرار بالفضل، فذلك كله مبنيٌّ على التصور القديم الذي يرى الموقف محصورا في اللحظات التي انبهرت فيها الملائكة بدبيب نفخة الله في جسد آدم، وهو تصورٌ تبين قصورُه عن فهم الموضوع في ضوء معطيات العلم، واحتمالات النصوص القرآنية.

والذي نطمئن إليه هو أن سجود الملائكة كان يعني تكليفهم بحياطة الحياة الإنسانية، ابتداء من (آدم)، وهو تكليفٌ ماضٍ إلى يوم القيامة، تتولّى الملائكة فيه المحافظة على بني آدم، وإلهامَهم الخير، طبقا لمشيئة الله سبحانه، في مقابل ما توعد به إبليسُ آدمَ وذريتَه من الغواية والاحتناك والهيمنة» (٧٥).

ثم قال: «وعليه فإن تكليف الله سبحانه للملائكة بالسجود كان يعني تكليفهم بالاشتغال بحفظ ذلك الخليفة النبي، وذريته إلى يوم القيامة،

75 ـ أبي آدم، ص ١٤٧.

وقد رفض إبليس أن يخضع للأمر الإلهي، وأن يعمل في خدمة الإنسان كالملائكة .. وبذلك انشق على الأمر الإلهي، وصار عدوًّا لآدم وذريته، كما صار عدوًّا لله خالقه» (٧٦).

«وعلى ذلك فقد سجد الملائكة، وما زالوا ساجدين لآدم ولبني آدم» (٧٧).

هذا هو معنى السجود عند المؤلف، وبحسب تأويله، وعليه فقد صَرَف لفظَ السجودِ إلى معنى لا تحتمله اللغة، ولا يتوافق مع ما أجمعت عليه الأمة ـ خاصة المفسرين ـ.

إنه أوّلَ الأمر بالسجود إلى أنه أمْرٌ للملائكة، وتكليفٌ لهم من الله عز وجل بحياطة آدم وبنيه، والمحافظة عليهم، وحمايتهم مما توعّد به إبليسُ آدمَ وبنيه بالغواية، والتسلُّطِ عليهم بالإضلال.

وهذا التأويل فاسدٌ مِن ثلاثة وجوه:

الوجه الأول: أنه تحميل لكلمة «السجود» ما لا تحتمله لغةً ولا شرعاً؛ حيث إنه ليس من دلالة الأصل (س ج د) في اللغة ولا في الاصطلاح الشرعيِّ المعنى الذي ذكره.

قال ابن فارس ـ رحمه الله ـ: «(سَجَدَ) السِّينُ وَالْجِيمُ وَالدَّالُ أَصْلٌ وَاحِدٌ

---

76 ـ أبي آدم، ص ١٥٠.

77 ـ أبي آدم، ص ١٤٨.

مُطَّرِدٌ يَدُلُّ عَلَى تَطَامُنٍ [٧٨] وَذُلٍّ، يُقَالُ سَجَدَ، إِذَا تَطَامَنَ، وَكُلُّ مَا ذَلَّ فَقَدْ سَجَدَ، قَالَ أَبُو عَمْرٍو: أَسْجَدَ الرَّجُلُ، إِذَا طَأْطَأَ رَأْسَهُ وَانْحَنَى» [٧٩].

وقال الإمامُ «القرطبيُّ» ـ رحمه الله ـ في معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [سورة البقرة: ٣٤]:

«السُّجُودُ مَعْنَاهُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ التَّذَلُّلُ وَالْخُضُوعُ، وَعَيْنٌ سَاجِدَةٌ، أَيْ فَاتِرَةٌ عَنِ النَّظَرِ، وَغَايَتُهُ وَضْعُ الْوَجْهِ بِالْأَرْضِ» [٨٠].

وذكَر الإمامُ «ابنُ عرفة» ـ رحمه الله ـ حَدَّ السجود في الشرع بأنه: «مَسُّ الْأَرْضِ أَوْ مَا اتَّصَلَ بِهَا مِنْ سَطْحِ مَحَلِّ الْمُصَلِّي ـ كَالسَّرِيرِ ـ بِالْجَبْهَةِ وَالْأَنْفِ» [٨١].

وقال الإمام «الآلوسيُّ» ـ رحمه الله ـ: «والسجود في الأصل: تذلّلٌ مع

---

78 ـ التطامن ـ كما تفيد كتب اللغة ـ معناه الانحناء. «طَأْمَنَ الرَّجُلُ ظَهْرَهُ بِالْهَمْزِ عَلَى فَأْعَلَ، وَيَجُوزُ تَسْهِيلُ الْهَمْزَةِ فَيُقَالُ طَامَنَ وَمَعْنَاهُ حَنَاهُ وَخَفَضَهُ». المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد بن محمد بن علي الفيومي، ص ٣٧٨، المكتبة العلمية.

79 ـ معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي (المتوفى ٣٩٥هـ) ٣/ ١٣٣، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م.

80 ـ الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاريّ القرطبيّ (المتوفى ٦٧١هـ) ١/ ٢٩١، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، ط الثانية ١٣٨٤هـ ١٩٦٤م.

81 ـ الهداية الكافية الشافية لبيان حقائق الإمام ابن عرفة الوافية (شرح حدود ابن عرفة للرصّاع)، محمد بن قاسم الأنصاري، أبو عبد الله، الرصاع التونسي المالكي (المتوفَّى ٨٩٤هـ)، ص ٥٨، المكتبة العلمية، ط الأولى ١٣٥٠هـ.

انخفاضٍ بانحناءٍ وغيره.

وفي الشرع: وَضْعُ الجبهةِ على قصد العبادة.

وفي المعنى المأمور به هنا [يعني آيةَ سورةِ البقرة] خلاف؛ فقيل: المعنى الشرعيّ، والمسجودُ له في الحقيقة هو الله تعالى، وآدمُ إمّا قِبْلةٌ أو سبب، ومِن الناس مَن جوّز كونَ المسجودِ له آدمَ عليه السلام حقيقة، مُدّعيا أن السجود للمخلوق إنما مُنع في شرعنا، وفيه أن السجودَ الشرعيَّ عبادة، وعبادةُ غيره سبحانه شِرْك محرّم في جميع الأديان والأزمان، وقيل المعنى اللغويّ، ولم يكن فيه وضع الجباه، بل كان مجرد تذلل وانقياد» (٨٢).

فهل بعد هذا يوجَد مجال أو وجْهٌ في اللغة أو الشرع يُحمَل عليه تأويل صاحب كتاب «أبي آدم»، بأن السجود معناه التكليف الإلهي للملائكة بالاشتغال بحفظ آدم وذريتِه، وحمايتِهم مما توعّد به إبليس، والعمل في خدمتهم إلى يوم القيامة ؟

أم أنه يُلغِي مقاييسَ اللغةِ، واصطلاحات الشرعِ، ويجعلُ لنفسه مقاييسَ واصطلاحات خاصةً به ؟!

الوجه الثاني: إنّ زعْمَه بأنّ السجود معناه تكليفُ الله الملائكةَ بالحفاظ على آدم وذريتِه وحمايتِهم، وإلهامِهم الخيرَ في مقابل ما توعّدهم به إبليسُ من الغواية والاحتناك والهيمنة والتضليل؛ هذا الزعم يترتب عليه أن إبليس قد

82 ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للعلامة السيد محمود الآلوسيِّ البغداديِّ ١/ ٢٢٨ ـ ٢٢٩ باختصار ، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

توعّد آدمَ وذريتَه بما توعّدهم به قبل الأمر بالسجود، وأنه لما حصل منه هذا التوعّدُ أمَرَ الله الملائكةَ بالسجود بالمعنى الذي ادعاه المؤلف، وهو التكليف بحفظ آدم وذريته ورعايتهم وحمايتهم مما توعّد به إبليس .

أي أنه يلزم على زعمه هذا ـ باختصار ـ أنّ إبليس توعّد أوّلا، ثم كان الأمر بالسجود، أي بالحفظ تاليا.

وهذا الترتيب ينفيه صريح القرآن الكريم في آيات القصة كلها، حيث أجمعتْ آياتُ القرآن الكريم الخاصةُ بموضوع السجود لآدم على أن توعّد إبليس لآدم وذريته بالغواية والإضلال قد وقع متأخرا عن أمر الله الملائكةَ بالسجود لآدم، الأمر الذي ينسف ما ذهب إليه المؤلف.

الوجه الثالث: أظنّ أنّ المؤلف يتفق مع أمة محمد ﷺ جميعِها في أن إبليس كان مأمورا بالسجود لآدم مع الملائكة.

وإذْ كان ذلك كذلك؛ فكيف يَسُوغ أن يكلِّف الله إبليسَ مع الملائكة بالمحافظة على آدم وبنيه، في مقابل ما توعّدهم به إبليسُ من الإضلال والتزيين، ونحوه ـ على اعتبار أن هذا هو معنى السجود عند المؤلِّف ـ، مع أن إبليس لم يَظهر منه شيء حتى تلك اللحظة؛ (لحظة الأمر بالسجود) ؟!!

إنّ هذا لم ولن يقول به أحد ..

وهكذا نرى أن ما يزعمه صاحب كتاب «أبي آدم» بشأن السجود ومعناه لا أساس له إلا التخمين، والتخيّلات، ولا سند له إلا التعصب للرأي بغير حق، واتباع الهوى .. والله المعافي.

٢ـ تأويل حوار «إبليس» مع الله تعالى بأنه «وَحْيٌ نفسيّ» !!

ومن صور التأويل الفاسد عند صاحب كتاب «أبي آدم» كذلك؛ ما تأوّلَ به حوارَ «إبليس» مع الله رب العالمين.

لقد ذهب خيال المؤلِّف إلى أن ما دار بين «إبليسَ» وبين الله تعالى من حوار أو مقاولة في ثنايا الحديث عن أمْر اللهِ عز وجل الملائكةَ بالسجود لآدم، وتكبّرِ «إبليسَ»، وفِسْقِه عن أمر ربه، وما أجاب به «إبليس» خالقه، وما قاله الله تعالى له، على نحو ما ذكره الله تعالى في قصة «آدم»، في مواضع كثيرة من القرآن الكريم؛ ذهب إلى أنّ ذلك الحوارَ لم يحدث في الواقع مباشرة، وأنّ مَن قال بحدوثه على الحقيقة إنما يتخيل صورة ساذجة ـ كما يصف المؤلف ـ، وكلَّ ما في الأمر أنه حوار جرى ـ في تصور المؤلف ـ من خلال الوحي النفسي.

وقبل أن نذكر ما قاله في تقرير تأويله لآيات الكتاب العزيز بشأن هذا الحوار، ثم نبينَ فسادَ تصوُّره؛ نقرأُ أَوّلاً بعض الآيات الكريمة التي ذكرت هذا الحوار، فيما يلي:

قال الله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ *

قَالَ: يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ *

قَالَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ *
قَالَ: فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ *
قَالَ: رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ *
قَالَ: فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ *
قَالَ: فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ *
قَالَ: فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [سورة ص ٧١ ـ ٨٥].

بعد أن أورد صاحب كتاب «أبي آدم» الآياتِ السابقةَ؛ قال:

«وفي بداية النظر في مكونات الحوار نؤكِّد هنا على ضرورة مراعاة المسافة بين ما ينبغي لله من جلال وعظمة وعلوّ شأن، وهو سبحانه الخالق البارئ المصوِّر، وبين إبليس من حيث هو مخلوق يواجه خالقه، وهو لا يزيد في قدْره عن أيِّ مخلوق متمرِّد على أوامر الخالق، مُصرٍّ على معصيته، سواء أكان من الإنس أم من الجن .. هذا من ناحية ..

ومن ناحية أخرى يجب أن نستبعد الصورة الساذجة التي يتخيلها بعض مَن تناولوا هذه القصة .. أعني صورة المواجهة المباشرة في هذا الحوار، فلا ريب أن الشيطان في موقعه من الكون، لا يستطيع أن يتجاوز قدره، فيتطاول إلى المقام الأسنى، مقام ربِّ العزة، ليجابهه بتلك المقولات، فالله أعلى وأجل من أن تدركه الأبصار، أو تُحده الأوهام والظنون.

وغاية ما نتصوره أن يكون الحوار قد جرى من خلال الوحي النفسيّ،

الذي أحاط بتفاصيله مَن يعلـم الـسر وأخفـى، فهـو ـ والله أعلـم ـ حـوار جرى في نفس إبليس، حين رفض الأمر بالـسجود، مـن منطلـق اعتقـاده بأنه خير من آدم مِن حيث الأصل، فهو مِن نـار، وآدم مـن طـين، وذلـك ردًّا على ما ثار في نفسه من إباء السجود لا تفسير له إلا الكبر والغطرسة، وحينئذ جاءه الأمر الإلهي ـ أيضا ـ من طريق الـوحي النفسي: ﴿ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ فـاخرج منهـا فإنـك رجيم * وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين﴾ [سورة ص: ٧٧ ـ ٧٨] .. وهكذا سار الحوار إلى نهايته، بكل ما تضمّن من حقـائق وأقدار عبّرت عنها كـل رسالات الأنبياء، من لدن آدم إلى محمد، عليهم جميعا أفضل الصلاة وأتم السلام» [٨٣].

لِم هذا التطاول والتضليل؟!!

وبداية تجدر الإشـارة إلى ملاحظة عابرة في كلامه السابق، على النحـو التالي:

إنّ قوله: «يجب أن نستبعد الـصورة الـساذجة التـي تخيّلهـا بعـض مَـن تناولوا هذه القصة .. أعني صورة المواجهة المباشرة في هذا الحوار .. ».

أقول: إن كلامه هذا ـ كما لا يخفى ـ ينطوي على تطاول وخـروج عـن اللياقة، ومجافاةٍ لحسْنِ الخلـق، عنـدما يـصف مـن يعتقـد بواقعيـة الحـوار، وبأنه جرى في الحقيقة بالسذاجة، وهو يعلم أن الذين يعتقـدون بهـذا هـم

83 ـ أبي آدم، ص ١٥١ ـ ١٥٢.

علماء الأمة؛ فقهاؤها، ومفسِّروها، ومحدِّثوها، ودعاتُها ... ومع هذا يتناولهم بأسلوب عارٍ من الأدب والذوق ؟!

وبالإضافة إلى هذا فإن كلامه ينطوي أيضا على تضليل وتمويه، حيث إنه أراد أن يوهم القارئ بأنّ فهْمَ ما جرى من حوار بين الله تعالى وإبليس على أنه حوار حقيقيّ (وليس على أنه وحيٌ نفسيٌّ كما زعم)؛ هذا الفهم ليس موضِع إجماع، أو محلّ اشتراك بين جميع مَن تناولوا القصة من العلماء، وإنما هو ـ بحسب سياقه وتضليله ـ لا يعدو أن يكون تخيّلا سكن رؤوس بعض السذّج فقط، أما بقية العلماء فلا تتخيل هذه الصورة التي يصفها بالساذجة.

هذا التضليل قد ساقه المؤلف بهدوء من خلال عبارته السابقة (يجب أن نستبعد الصورة الساذجة التي يتخيلها بعض من تناولوا هذه القصة ...) إلخ كلامه.

ونحن نقول له:

مَن هم هؤلاء البعض الذين يتخيلون ما تراه صورة ساذجة ؟

ومَنْ هؤلاء البقية الذين عافاهم الله من هذا التخيل الساذج، فاستبدلوا به تخيّلا أكثر سذاجة، وأشدّ غرابة، وأبعدَ ما يكون عن صريح القرآن الكريم، ولغة العرب، بأنْ تصوَّروا مِثْلَك أنه (وحيٌ نفسيٌّ) ؟!!

هل يستطيع أن يُسمِّيَ لنا عالما واحدا من بقية المفسرين الذين وصفهم بـ «مَن تناولوا القصة» قد نفَى أن يكون ذلك الحوار حدث في الحقيقة

والواقع، وذهب إلى أنه كان حوارا عن طريق الوحي النفسي (المزعزم)؟

إنه لم يفعل ـ مع حرصه على أن يجد مؤيدا مهما كان شأنه ـ!!

وما هو بفاعل!! لسبب يسير؛ وهو أنه لا يوجَد بعضٌ مِنْ أهل العِلم ذهب إلى القول بواقعية الحوار، وأجراه على الحقيقة، وبعضٌ آخرُ ذهب إلى القول بغير ذلك .. بل الأمة كلها في هذه المسألة على فهم واحد، هو أن الحوار على ظاهره؛ حوار حقيقيٌّ.

فلم التضليل والتمويه .. والتبجح ؟!!

ولِمَ لا يكون الحوار حقيقيا ؟

ونتساءل: لِمَ لا يكون الحوار حقيقيا؟ ولِمَ ذهب المؤلِّف إلى تصور الحوار على أنه وحْيٌ نفسيّ؟

المؤلف يرى أن الله عز وجل له المقام الأسمى، وأنه سبحانه ذو العزة والجبروت، وأن إبليس لا يعدو كونه مخلوقا حقيرا متمردا على خالقه، ولذلك لا يليق بمقام الله تعالى أن يخاطبَه إبليسُ ويرُدَّ عليه مباشرة، فالله أعلى وأجلُّ مِن أن نقول بأنّ هناك محاورةً أو مقاولةً جرت ـ حقيقةً ـ بين الله تعالى وبين إبليس ـ كما يرى المؤلف ـ.

بيْدَ أنّ الأمر لا يتطلّب كلَّ هذا التحفظ، والتكلّفِ والشَّطَطِ في تأويل آيات القصة على نحو ما ذهب إليه تصور صاحب كتاب «أبي آدم»؛ حيث إنّ الله تعالى قد أخبرنا بوقوع الحوار في صورة مقاولة تكررت، كما في آيات القصة.

ومن القواعد الراسخة المُتفَّقِ عليها عند أهل العلم: «الْأَصْلُ فِي الْكَلَامِ الْحَقِيقَةُ» [٨٤].

وبناء على هذا فإنّ «الواجب استعمال كلِّ لفظٍ في معناه الحقيقيّ» [٨٥]، كما «أنّ إعمالَ كلامِ المتكلِّمِ مِن شارعٍ أو عاقدٍ أو حالفٍ أو غيرِهم، إنما يكون بحمْل ألفاظِه على معانيها الحقيقيةِ عند الخلوِّ عن القرائن التي تُرجِّح إرادةَ المجاز» [٨٦].

«ولا يُصْرَف اللفظُ عن معناه الحقيقيِّ إلى المجازيِّ إلا عند عدم الإمكان؛ بأنْ تعذّرَت الحقيقة، أو تعسّرت، أو هُجِرَت، فيُصار إلى المجاز، ويُحمَل الكلامُ على المعنى المجازيِّ ضرورةَ عدمِ إهمالِ كلامِ العاقل، وتُطَبَّق قاعدةُ (إذا تعذّرَت الحقيقةُ يُصار إلى المجاز)» [٨٧].

كما أنّ من القواعد المقررة كذلك: «استعمالُ الناسِ حجَّة يجب العمل

84 ـ الأشباه والنظائر، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى ٩١١هـ)، ص ٦٣، دار الكتب العلمية، ط الأولى ١٤١١هـ ١٩٩٠م. الأشباه والنظائر على مذهب أبي حنيفة النُّعْمان، زين الدين بن إبراهيم بن محمد، المعروف بابن نجيم المصري (المتوفى ٩٧٠هـ)، ص ٥٩، دار الكتب العلمية – بيروت،ط الأولى ١٤١٩هـ ١٩٩٩م.

85 ـ الوجيز في إيضاح قواعد الفقة الكلية، د. محمد صدقي بن أحمد آل بورنو، ص ٣٠٠، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط الرابعة ١٤١٦هـ ١٩٩٦م.

86 ـ السابق، ص ٣١٧.

87 ـ القواعد الفقهية وتطبيقاتها في المذاهب الأربعة، د. محمد مصطفى الزحيلي ١/ ٣٦٧، دار الفكر – دمشق، ط الأولى ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م.

بها» [88].

وأما في لغة التخاطب خاصة فقد قرر أهل العلم أنه: «يُحمَل كلامُ الناسِ على ما جرت به عادتهم في خطابهم» [89].

فهل هناك تعذُّرٌ أو مانعٌ شرْعيٌّ أو عُرْفيٌّ يُحتِّم علينا أن لا نُجْريَ الحوارَ على معناه الحقيقيِّ في اللغة وفي الشرع وفي العادة ؟

وهل هناك ضرورةٌ مُلْجِئة، أو قرينةٌ معتبرةٌ لتأويل كلام الله تعالى في قصة السجود، وصَرْفِهِ عن حقيقته بادّعاءِ أنّه «حوارٌ نفسِيّ» ؟!!

الواقع أن تأويل المؤلف هنا لآيات الحوار ليس له ضرورة، ولا توجد معه عليه قرينة، اللهم إلا تصوراته وافتراضاته، وغروره بنفسه، وتطاوله على أهل العلم بما لا يليق .. وكل هذا لا يغنيه من الحق شيئا.

هذا أمر؛ وأمر آخر: أيُّ انتقاصٍ من قدْر الله تعالى إذا أجرينا الكلامَ على ظاهره ـ اتباعا للأصل ـ، وقلنا بحصول الحوار المباشر، وحدوث المقاولة الحقيقية في هذه القصة ؟

إنه سواء أكان الحوار حقيقيا، أم كان ـ كما يزعم المؤلف ـ وحيا نفسيا؛ فلن يتغير في الأمر شيئ، بمعنى أن الله عز وجل هو صاحب العظمة

---

88 ـ شرح القواعد الفقهية، أحمد بن الشيخ محمد الزرقا، ص ٢٢٣، صححه وعلق عليه: مصطفى أحمد الزرقا، دار القلم – دمشق، ط الثانية ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م، القواعد الفقهية وتطبيقاتها في المذاهب الأربعة ١/ ٣٢١، الوجيز في إيضاح قواعد الفقة الكلية ص ٢٩٢.

89 ـ القواعد الفقهية وتطبيقاتها في المذاهب الأربعة ١/ ٣٣٥.

والكبرياء أبداً، وله الكمالات التي لا تتناهى، وتعالى وتقدس ... وإبليس هو هو؛ مخلوق متمرد، مطرود من رحمة الله، لن يزيد قدره عن هذا قيد أنملة .. والمسألة يمكن تشبيهها ـ ولله المثل الأعلى ـ بالقاضي العادل النزيهِ، الذي يحاكم كل شهر عشرات العتاة الفاسقين الخارجين على القانون، فيخاطبهم ويخاطبونه، وقد يكون منهم المجاوز لحدود الأدب في الكلام معه .. فهل أَنْقَص هذا من قدر القاضي السامق فوق منصة القضاء، أو رفع من قدر المجرمين العتاة الفاسقين ؟

ثم إننا إذا نظرنا في آيات القرآن الكريم سوف يتبين لنا أن الله عز وجل قد أخبرنا بأنه سبحانه أخذ من بني آدم مِن ظهورهم ذريتَهم، وأشهدهم على أنفسهم بأنه ربهم، وأنهم قد أجابوا: ﴿بَلَى﴾ ـ كما قال سبحانه في محكم التنزيل ـ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [سورة الأعراف: ١٧٢ ـ ١٧٣].

وهذه كانت مجرد ذرّات لا وزن لها، وكان من بينها ـ بلا ريب ـ ذرات فرعون، وهامان، وقارون، والنمرود، والسامريّ، وأبي جهل، وأبي لهب، وغيرِهم من أئمة الكفر والضلال .. فهل أَنْقَص هذا من قدْر الله العليِّ الأعلى ؟

وبالمناسبة فإن صاحب كتاب «أبي آدم» قد أورد هذا الحوار أو المشهد،

ولم ينكر حدوثه على الحقيقة، بل ذهب إلى أنه سوف تُعرَض على كل إنسان صورةٌ مِن هذا المشهد يوم القيامة، تُبيِّن موقعَه بين مَن حضروا اللقاء، وتُثْبت وجوده وشهادته على نفسه بالإقرار بعبوديته لله» (٩٠).

ولستُ أدري ولا يدري أحدٌ مِن أين له بهذا التفصيل، وهذا الإخبار عن أمْرٍ غيبيٍّ مِن أمور يوم القيامة، بلا دليل من كتابٍ أو سنة ؟!!

كما أخبرنا الله تعالى - أيضا - بأنه سبحانه قد خاطب السماوات والأرض، في قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [سورة فصلت: ١١].

وأخبرنا سبحانه أنه سيخاطب الكفار يوم القيامة، في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [سورة الأنعام: ٣٠].

وقوله جلّ شأنه: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ * أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ * قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ * رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ * قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ * إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ * إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ

---

95 - يُراجَع: أبي آدم، ص ١٠٦ - ١٠٧.

﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ * قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [سورة المؤمنون: ١٠٣ ـ ١١٤].

فهل ذلك الحوار وتلك المقاولة التي ستجري يوم القيامة بين الله جل جلاله ـ وهو ربُّ الأرباب، وملك الملوك، وملك يوم الدين ـ وبين الكفار ـ وهم أحقر وأذلّ خلق الله يوم يقوم الناس لرب العالمين ـ؛ يُنقِص من قدر الله المليك المقتدر، تبارك وتعالى ؟

أم أنّ المؤلِّف سيقول إنه حوارٌ سوف يكون عن طريق الوحيِ النفسيّ أيضا ؟!!

ونضيف إلى ما سبق من وجوه إبطال تأويل المؤلِّف للحوار على أنه (وحيٌ نفسيٌّ)، فنقول:

سنفترض ـ جدلا ـ أن الحوار قد جرى عن طريق الوحي النفسيّ ـ كما يزعم المؤلف ـ، حيث إن الله تعالى قد اطلع على ما في نفس إبليس من التكبر على الخضوع لأمر الله بالسجود لآدم، فردّ الله عليه بناء على ما علم مما في نفس إبليس.

لكن؛ كيف علم إبليس ما في نفس الله، فأعدّ ردًّا في نفسه، أو حدّثته نفسُه بالجواب، دون أن يسمع من الله شيئا ؟!!

بعبارة أخرى: هل كان إبليس يعلم ما سيقوله الله له، فيُعدّ لكل قول من ربِّ العزة قولا يَرُدُّ به عليه، حتى انتهت المقاولة ؟!!

إنّ هذا ما لا يقول به مسلم ـ عالما كان أم غير عالم ـ، فالله وحده هو الذي يعلم السر وأخفى، ويَطّلع وحده على سرائر خلقه، ولا يملك أحد من الخلق أن يعلم ما نفس مخلوق مثله، فضلا عن أن يعلم ما في نفس الله، وصدق الله فيما قال ـ حكاية عن نبيِّه ورسولِه عيسى ﷺ ـ: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [سورة المائدة: ١١٦].

وأخيرا، وليس آخرا:

إن المؤلف يقول بأن كل ما جرى كان في نفس إبليس، وقد أحاط بتفاصيله مَن يعلم السر وأخفى، ولما علم الله ما نفسه من إباء السجود بدافع الكبر والغطرسة طرده ولعنه، أو على حدّ عبارة المؤلِّف: «وحينئذ جاءه الأمر الإلهيّ ـ أيضا ـ من طريق الوحي النفسيّ: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [سورة ص: ٧٧ـ٧٨] »[(٩١)].

فهل يجوز أن يكون الله تعالى قد طرد إبليس ولعنه وغضب عليه مِن غير أن تصدر منه أيّةُ كلمةِ اعتراضٍ، أو إباءٍ، أو انتقاصٍ مِن آدم ... وإنما حاسبه الله على ما أَسرَّ في نفسه، وما جال بخاطره ؟!!

إنّ هذا لا يجوز في حق الله بمقتضى عدله؛ فإنه سبحانه لا يحاسب أحدا أو يعاقبه إلا بعد أن يقيم عليه الحجة، ومحالٌ أن يتقرر مصير إبليس وينالَ ذلك الوعيدَ الرهيب، ويوضَع فيما وضعه الله فيه بناء على حديث كان حبيسَ النفس، وطيَّ الكتمان.

---

91 ـ أبي آدم، ص ١٥٢.

ولـو كـان الله يعاقِـب أحـداً أو يحاسبه بنـاء عـلى مـا علـم سـبحانه بـما سيكون عليـه الـشخص، ومِـن غـير أن يـصدر منـه شيء؛ فلـماذا أرسـل الرسلَ إلى الناس مبشِّرين ومُنذرين، مع علمه تعالى بأن منهم من لا يفيده الإنذار، لأنه قد سبق في علمه سبحانه أنه من أهل الفسوق والكفران؟

إنّ الله عزّ وجلّ ترك الخلْق يعملون، وأرسـل لهـم الرسـل ليقيـم الحجـة عليهم، كما قال أحكم الحـاكمين: ﴿رُسُـلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُـونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [سورة النساء: ١٦٥].

وعلى هذا فمحاسبةُ الله لإبليسَ ومعاقبتُه إيّاهُ لم تكن بناء على مـا علِـم سبحانه فقط، بل كانت بالإضافة إلى هذا بناءً على ما صدَر مِن إبليس مِن فـسقٍ وعـصيانٍ عمـليٍّ، تمثَّـل في اعتراضِـه عـلى أمـر الله، وامتناعِـه عـن الخضوع لتكليفِ مولاه، وتعاليه على آدم وتكبّرِه، وتكلّمِه بـما لا يليـق في حق ربِّ الأرباب .. كل هذا جرى حقيقة وواقعا، لا في مكنون الـصدر، وحديث النفس .. هذا هو الـذي ينسجم مـع شرع الله وعدلـه سـبحانه، وهو ما يتضمنه صريح القرآن المجيد.

ويؤسـفنا أن نقول: إن هذا الذي يتـأول بـه صـاحب كتـاب «أبي آدم» آياتِ الله محضُ خيال، يجب أن تُنَزّه عنه قضايا الغيب، ومبادئ الشرع.

وكان أجدر به أن يوفر على نفسه وعلينا الوقت والجهد، فيوقِفَ عقلَه عنـد حـدوده، ويكـبحَ مِـن جُمـوحِ الخيـالِ وشَـطَحَاتِه في مـسائل الغيـب والإيمان والدين، ولا يقولَ على الله ما لا يعلم.

خطورة هذه التأويلات الجامحة على الدِّين

ثم إننا لو فتحنا الباب لمثل هذه التأويلات الجامحة، والتخيلات الفاسدة؛ لقال مَن شاء في دين الله ما شاء، ولوَجد كلُّ صاحبِ نِحْلةٍ فاسدةٍ أو بدعةٍ ضالةٍ، أو رأْيٍ لقيطٍ في باب التأويل المتعسِّف والمتكلّف فرصةً ينفذ منها إلى ما يريد من أهداف ضارة بالدِّين، هادِمةٍ لشرع أحْكمِ الحاكمين.

وهل دخلت الباطنية لهدم الدين وتفريغه من محتواه، والبُعْدِ به عما أنزل الله، إلا مِن باب التأويل الفاسد، الذي لا يَسُوغ شرعا ولا عقلا، واليوم يأتي صاحب كتاب «أبي آدم» ليفتح هذا البابَ المدمِّر من جديد، عندما يأتي بتأويلاتٍ جامحةٍ فاسدةٍ لآيات القرآن، بدعوى أن هذه رؤية مستنيرة واعية، خفيت عن الأمة كلِّها !!

إن التأويل الفاسدَ لآيات القرآن الكريم والتعسفَ في فهمها، والتكلّفَ في صرْفها عن ظواهرها بغير مقتضٍ ولا قرينة؛ مِن شأنه أن يضيع معالم الدين، ويفرغه من مضمونه، ويفضي إلى تعطيل شعائره وشرائعه، وهو صورة من صور تحريف الكلم عن مواضعه، الذي وقع فيه اليهود والنصارى من قبل.

كما أن من شأن هذا التأويل الفاسد الذي يتجاهل ضوابط اللغة، ولا يتماشى مع حقيقتها أو مجازها؛ مِن شأنه أن يُفقدها معاييرها ومقاييسها، التي يرجع الناس إليها، وفي هذا ما فيه من آثار ماحقة، وأخطار محدقة.

إن التعامل مع آيات القرآن الكريم يجب أن يكون منضبطا بمحكمات الشرع، وقواعد اللغة العربية، وفهم سلفنا الصالح والراسخين في العلم، كما أننا يجب أن نعرض آراءنا ونُخضِع اجتهاداتنا إلى آيات الكتاب العزيز، وليس العكس.

الفصـــل الثـــالث

نقض الفكرة الأساسية لكتاب «أبي آدم»

ونقف في هذا الفصل وِقفة متأنية لمناقشة الفكرة الأساسية لكتاب «أبي آدم»، وهي التفريق بين (البَشَر) و (الإنسان)، على نحو ما عرضناها ـ نقلا عن المؤلف ـ في الفصل الأول من بحثنا هذا، لنكشف عن بطلانها وتهافتها، ونبين أنها عارية من الصحة، لا تستند على أية حجة، بالرغم مما ادعاه المؤلف أدلة.

وتجدر الإشارة إلى أن المؤلِّف لم يقدم أدلة على فكرته سوى تَعسُّفِه في فهم الآيات، ولُجوئِه إلى التأويل الفاسد، وافتراضاته، وتحَكُّمِه وبُعْدِه عن الموضوعية، وكلُّ ما ادعى أنه أدلة لا تسعفه في شيء، وكلُّها لا وزن لها في معيار القرآن والسنة واللغة، وإن زعم غير ذلك، أوْ مارَس الإرهابَ الفكريَّ بحقِّ مَن خالفهم وشذّ ـ هو ـ عنهم.

لا فرق بين البشر والإنسان في اللغة والقرآن والسنة

قال صاحب كتاب «أبي آدم»: «حقيقة لا ريب لدينا فيها؛ هي أن بين (البشر والإنسان) عموما وخصوصا مطلقا، فـ (البشر) لفظ عام في كل مخلوق ظهر على سطح الأرض، يسير على قدمين، منتصب القامة، و (الإنسان) لفظ خاص بكل من كان مكلَّفا بمعرفة الله وعبادته، فكل

إنسان بشر، وليس كل بشر إنسانا»[٩٢].

ويقرر أنّ الإنسان «يبدأ بوجود آدم عليه السلام، وآدم ـ على هذا ـ هو (أبو الإنسان)، وليس (أبو البشر)، ولا علاقة بين آدم والبشر الذين بادوا قبْله، تمهيدا لظهور ذلك النسل الآدميّ الجديد، اللهم إلا تلك العلاقة العامة التذكارية، باعتباره من نسلهم»[٩٣].

وأول ما يَنْسف نظرية المؤلف هو أنه لا فرق في اللغة، ولا في القرآن والسنة، بين البشر والإنسان، بالمعنى الذي ذهب إليه خياله، وذلك على النحو التالي:

أ ـ اللغة:

أما اللغة؛ فإن الإجماع حاصلٌ في معاجمها على أن الإنسان هو البشر، وأن البشر هو الإنسان، وأن آدم أبو البشر، وأبو الإنسان، وأبو الناس، وأبو البشرية .. ونَذْكر مِن المعاجم اللغوية ما يفي بالمطلوب، فيما يلي:

جاء في القاموس المحيط: «الإِنْسُ: البَشَر، كالإنسان، الواحد إِنْسِيٌّ، وأَنَسِيٌّ. جمع: أَناسِيٌّ، وقَرَأَ يَحْيَى بنُ الحارِثِ ﴿وَأَنَاسِيَ كَثِيرًا﴾ [سورة الفرقان: ٤٩] بالتخفيفِ، وأناسيَةٌ وآناسٌ. والمرأَةُ: إِنْسَانٌ، وبالهاء: عامِّيَّةٌ، والأُنَاس: الناس»[٩٤].

---

92 ـ أبي آدم، ص ١٠٣.

93 ـ السابق، ص ١٠٤.

94 ـ القاموس المحيط، الفيروز آبادي، ص ٦٨٣، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط الثانية ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

وفيه أيضا: «البَشَرُ ـ محرَّكةً ـ: الإِنْسانُ ذَكَراً أو أُنْثَى، واحداً أو جَمْعاً، وقد يُثَنَّى، ويُجْمَعُ أَبْشاراً، و ـ: ظاهرُ جِلْدِ الإِنْسانِ، قيلَ وغيرِه، جمعُ بَشَرَةٍ، وأَبْشارٌ: (جج) » [٩٥].

وفي مختار الصحاح: «الإِنْس: البَشَر» [٩٦].

وفي المعجم الوسيط: «البَشَر: الإنسان (الواحد والجمع والمذكَّر والمؤنَّث فيه سواء)، وقد يُثَنَّى، ويُجمع على أبشار» [٩٧].

وفيه أيضا: «الإنسانية: خلاف البهيمية، وجملة الصفات التي تُميز الإنسان، أو جملة أفراد النوع البشريّ التي تصدق عليها هذه الصفات» [٩٨].

ولو طَفِقْنا نتتبّع معاجمَ اللغةِ ـ قديمَها وحديثَها، مبسوطَها ووجيزَها ومتوسِّطَها ـ في هذا المعنى فلن نَجد سوى شيء واحد؛ وهو أنه لا فرق بين الإنسان والبشر، وأنّهما ذَوا معنى واحد.

ومؤلف كتاب «أبي آدم» يعلم هذه الحقيقة الناصعة، باعتبار أنه متخصص في علم اللغة، وليس مِن شكٍّ في أنه لو شمَّ رائحة تفريق بين البشر والإنسان في أيٍّ من كتب اللغة، حتى لو كان وجها شاذًّا لصنع منها براهين وحججا، وراح يملأ الدنيا ضجيجا، لكنه لم ولن يجد.

---

95 ـ السابق، ص ٤٤٧.

96 ـ مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، ص ١١، مكتبة لبنان – بيروت ١٩٨٨م.

97 ـ المعجم الوسيط ١/ ٦٠.

98 ـ السابق ١/ ٣٠.

بل إنه نفسَه أقرّ بأن جميع الباحثين في اللغة يستخدمون لفظ (بشر) على أنه مرادف للفظ (إنسان).

فهل ردَّه هذا الإجماع إلى الصواب ؟!!

كلا !!

بل راح يُخَطِّئ جميعَ الباحثين والعلماءِ الراسخين فيما أجمعوا عليه من عدم التفرقة بين البشر والإنسان، وقرر - في غرور وبلا دليل - بأنهم وقعوا في خطأ مشترك عندما فهموا ذلك الفهم، وعندما فهموا كذلك معه أن آدم هو أول المخلوقات.

وهذا نصُّ كلامه، إذْ قال:

«والواقع أن كل افتراض لتفسير نشأة اللغة له نصيب، ولو ضئيل من الصواب، فكل الآراء تجتمع لتنسج ثوب اللغة في صورة مكتملة، غير أنها جميعا وقعت في خطأ مشترَك هو خلطها بين البشر والإنسان من ناحية، وتصورها أن اهتداء الإنسان للغة كان خلال الفترة الزمنية القريبة التي عاشها الإنسان منذ آدم عليه السلام باعتباره أول المخلوقات .. من ناحية أخرى» [٩٩].

إنّ المرءَ ليتملّكُه العجَبُ مِن هذه الأحكامِ الجزافية، التي يرسلها دون دليل أو برهان، وهي لا تعدو أن تكون رجما بالغيب !!

---

٩٩ - أبي آدم، ص ١٣١.

ب- القرآن الكريم

وأما القرآن الكريم فلم يفرِّق بين كلمتي: (بَشَر) و (إنسان)، على الرَّغْمِ مِن زعْم المؤلِّف أن القرآن الكريم فرّق بينهما، وادّعائِه أنّ (البَشَر) في القرآن هم مَن كانوا غير مكلَّفين بدِين ولا عبادة ولا شرع، بعكس (الإنسان)، وحِرْصه على تكرار هذا الادعاء في كتابه كثيرا، كما هي عادته في التكرار.

وقبل أن نَذْكُر آياتِ القرآن الصريحةَ المبطلةَ لرأيه، والناقضةَ لما ذهب إليه خيالُه مِن أنّ البشر في القرآن يطلق على المخلوق الذي لم يكن مكلفا بدين؛ نُورِد كلاما للراغب الأصفهانيِّ رحمه الله، يهمنا كثيرا في هذا الشأن.

قال «الراغب»: «وخُصَّ في القرآن كلُّ موضع اعتُبِر من الإنسان؛ جُثّتُه وظاهرُه، بلفظ البَشَر، نحو: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْماءِ بَشَراً﴾ [سورة الفرقان:٥٤]، وقال عزّ وجل: ﴿إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ﴾ [سورة ص: ٧١]، ولمّا أراد الكفار الغضّ من الأنبياء اعتبروا ذلك فقالوا: ﴿إِنْ هذا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [سورة المدثر: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿أَبَشَراً مِنَّا واحِداً نَتَّبِعُهُ﴾ [سورة القمر: ٢٤]، ﴿ما أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا﴾ [سورة يس: ١٥]، ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنا﴾ [سورة المؤمنون:٤٧]، ﴿فَقالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنا﴾ [سورة التغابن:٦]، وعلى هذا قال: ﴿إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ [سورة الكهف:١١٠]، تنبيها أنّ الناس يتساوون في البشرية، وإنما يتفاضلون بما يختصون به من المعارف الجليلة والأعمال الجميلة، ولذلك قال بعده: ﴿يُوحى إِلَيَّ﴾ [سورة الكهف:١١٠]، تنبيها أني

بذلك تميّزت عنكم» [100].

هذا كلام «الراغب» حول إطلاق كلمة (بَشَر) في القرآن، وأنها تطلق في الذكر الحكيم على الإنسان، وأنّ البشَرَ هم الناس، والناسَ هم البشر.

القرآن يُصرِّح بأن البشر مكلفون

وإذا كان المؤلّف يزعم أن البشر غير مكلفين بمعرفة ربِّهم وتوحيدِه وعبادتِه، وأن التكليف ـ في القرآن ـ خاص بالإنسان؛ فنحن نسوق له هذه الآيات التي تهدم زعمه صراحة، فيما يأتي:

قال الله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾ [سورة المدثر: ٣١].

وقال سبحانه: ﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ﴾ [سورة المدثر: ٣٦].

وقال عز وجل: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [سورة المائدة: ١٨].

وقال عزَّ مِن قائل: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [سورة التغابن: ٦].

وقال جل شأنه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [سورة الكهف: ١١٠].

وقال تبارك وتعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ

---

100 ـ مفردات ألفاظ القرآن، الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانيّ (المتوفَّى ٥٠٢ هـ)، ص ١٢٤ـ١٢٥، تحقيق صفوان عدنان داوودي، دار القلم – دمشق، ط الأولى ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.

وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [سورة آل عمران: ٧٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [سورة الشورى: ٥١].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا * وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [سورة الإسراء: ٩٣، ٩٤].

وقال جل جلاله: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ* قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [سورة إبراهيم: ١٠ - ١١].

فهذه الآيات وغيرُها تُبْطل الادّعاء بأن القرآن لا يطلق لفظ البشر إلا على المخلوق الذي لم يُكلَّف بمعرفة الله وعبادته، وأن البشر لم يكونوا مكلَّفين، وأن الإنسان وحْده هو المكلَّف بعبادة الله.

ولو كان التكليف والإنذار للإنسان وحده لقال الله - مثلا -: نذيرا للإنسان .. ما كان لإنسان أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة .. وما منع

الناس أن يؤمنوا إلا أن قالوا أبعث الله إنسانا رسولا ... إلى آخر الآيات.

وهكذا يظهر جليا أنّ هذه الآيات ـ ومثلها في القرآن كثير ـ تُجمِع وتؤكِّد ـ منفردة ومجتمعة ـ على أن الله تعالى قد كلّف البشر، وجعل منهم الأنبياء والمرسلين، الذين يهدون الناس إلى صراط الله المستقيم.

فهل لا يزال صاحب كتاب «أبي آدم» بعد هذا مصرًّا على القول بأن المراد بالبشر في القرآن الكريم هو المخلوق الذي يسير على قدمين، منتصب القامة، لكنه غير مكلَّف بدين، كما أنهم (أي البشر) مجردون من العقل والفؤاد، بعيدون عن الرقي ... إلى آخر ما صبّ عليهم من الإهانات والحقارات، بينما الإنسان هو من كان مكلَّفا عاقلا راقيا ... إلى آخر ما خلع عليه من كمالات ؟!!

ج ـ السُنّة :

وأما السنة فلم تفرِّق كذلك بين البشر والإنسان، بتلك التفرقة المزعومة، والتي لا وجود لها إلا في خيال صاحبها مؤلِّف كتاب «أبي آدم»، وهذه بعض الأحاديث الصحيحة الصريحة الدالة على ما نقول:

عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَأَقْضِي عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا، فَلاَ يَأْخُذْهُ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ» (١٠١).

---

101 ـ رواه البخاري في ك الأَحْكَامِ ب مَوْعِظَةِ الإِمَامِ لِلْخُصُومِ ٩/ ٦٩ رقم ٧١٦٨، ومسلم =

وفي حديث الشفاعة الطويل، جاء قوله ﷺ: « ... فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ: أَلاَ تَرَوْنَ إِلَى مَا أَنْتُمْ فِيهِ، إِلَى مَا بَلَغَكُمْ؟ أَلاَ تَنْظُرُونَ إِلَى مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ: أَبُوكُمْ آدَمُ فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُو البَشَرِ، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ المَلاَئِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، وَأَسْكَنَكَ الجَنَّةَ، أَلاَ تَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ وَمَا بَلَغَنَا؟... » الحديث [١٠٢].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ» [١٠٣].

وعن سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ أنّ رسول الله ﷺ قال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ رَسُولٌ أُذَكِّرُكُمْ بِالله ... » [١٠٤].

وهكذا نجد التصريح في هذه الأحاديث الصحيحة وأمثالها بأنّ «آدم»

= في ك الأقضية ب الْحُكْمِ بِالظَّاهِرِ، وَاللَّحْنِ بِالْحُجَّةِ ٣/ ١٣٣٧ رقم ١٧١٣.

ومعنى «أَلْحَن»: أَفْطَنَ لِحُجّتِه، وأبلغ وأفصح.

102 ـ رواه البخاري في ك أحاديثِ الأَنْبياءِ ب قول الله تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ ...﴾ ٤/ ١٣٥ رقم ٣٣٤٠، ومسلم في ك الإيمان ب أَدْنَى أَهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلَةً فيها ١/ ١٨٤ رقم ١٩٤، من رواية أبي هريرة.

103 ـ رواه البخاري في ك فضائلِ القُرْآنِ ب كيف نَزَل الوَحْي ٦/ ١٨٢ رقم ٤٩٨١، ومسلم في ك الإيمان ب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ ١/ ١٢٤ رقم ١٥٢.

104 ـ رواه ابن حبان في صحيحه ك الصلاة ب صلاة الكسوف ٧/ ١٠١ رقم ٢٨٥٦، والطبرانيُّ في المعجم الكبير ٧/ ١٨٩ رقم ٦٧٩٧.

ﷺ هو أبو البَشَر، وأنّ البَشَر هو الإنسان، وأنّ الصفات في الجميع واحدة؛ من العقل، والإدراك، والأهلية للتكليف، والإنذار، والدعوةِ إلى الله تعالى.

لا دليل على ما قاله بشأن المرحلة البشرية

زعم المؤلف ـ كما ذكرنا سابقا ـ أن البَشَر كانوا بمثابة المرحلة التحضيرية، أو المشروعِ الإلهيِّ لإيجاد الإنسان، وأنّ هذا المشروعَ قد استغرق ملايين السنين، خضع البَشر في أثنائها إلى التسوية والتعديل والتهذيب، حيث إن هذه المرحلة ـ في تخيّله ـ مرّت بأطوار ثلاثة؛ ابتدأت بالخلْق البشريِّ، وانتهت بالاصطفاء الإنسانيِّ مُتَمَثِّلا في (آدم)، وبينهما تمّت عملية التسوية ..

يقول المؤلف: «ومعنى ذلك أن خلق الإنسان تم عبر ثلاث مراحل هائلة، هي (الخلق، والتسوية، والنفخ)، ومن السذاجة أن نفسِّر هذا النفخ بأنه بثُّ الروح في الجسد [105]، فقد حدث ذلك في مرحلة (الخلق)

---

105 ـ المؤلف هنا يرمي الأمة بالسذاجة؛ حيث إنها فهمت النفخ بالمعنى الذي يحيل الجماد إلى كائن حيٍّ، وهو ما لا يعجبه، متناسيا أنه يَشُذّ في تصوراته البديلة، التي يخالف بها في كثير من الأحيان ما أجمعت عليه الأمة سلفا وخلفا، وما كلامه هنا عن معنى النفخ إلا صورة من هذه التصورات الشاذة، حيث يتصور أن النفخ معناه تزويد الإنسان (آدم) بالملكات ووسائل الإدراك والعقل، من سمع وبصر ونحوهما، وهذا ما يعبِّر عنه بالمرحلة الثالثة، والتي يطلق عليها (الهندسة الداخلية) ـ كما في نهاية النص الذي معنا ـ أي أن النفخ عنده مقصور على المرحلة الثالثة للهندسة الداخلية .. وهذا كلام لا أساس له من الصحة.

الأولى التي أحالت التراب أو الطين إلى مخلوق ظاهر (بشر)، يتحرك على الأرض بالروح الحيواني، كما تتحرك سائر الكائنات من حشر، وطير وحيوان، ثم تناولت القدرة ذلك المخلوق في المرحلة الثانية (بالتسوية) أو ما يمكن تشبيهه بهندسة البناء وتجميله، وهي مرحلة التعديل المادي أو الظاهري، وقد استغرقت ملايين السنين، والله أعلم بتفاصيلها، ثم جاءت المرحلة الثالثة للهندسة الداخلية، وهي المتمثلة في تزويد المخلوق السويّ بالملكات والقدرات العليا، التي جوهرها (العقل)، والحياة الاجتماعية ثمرة العقل، واللغة وسيلة الاتصال بين أفراد المجتمع من العقلاء، وبذلك اكتمل [مشروع] (١٠٦) بناء (الإنسان)، فكان (آدم) هو أول (إنسان)، وطليعة سلالة التكليف بتوحيد الله وعبادته» (١٠٧).

فهل من دليل لديه على ما تخيَّل؟

الواقع أننا لم نجد له دليلا سوى التفلسفِ، والتلاعبِ بالألفاظ، وتحميلِها ما لا تحتمل في اللغة أو الشرع، وكذلك التلاعبِ بالاستخدامات اللغوية للأدوات النحوية، مثل (ثُمّ)، و (الفاء)، وتوليدِ آراء وافتراضات وتخمينات من خلال هذا المنهج، ليجعل منها في النهاية مقررات يناطح بها، ويصارع ثوابت الشرع، وما أجمعت عليه أمة

106 ـ كلمة «مشروع» قد ذكرها المؤلف في طبعة كتابه الأولى، وقد سبق أن أشرنا إلى هذا في ص ١٤ ، ١٥ من بحثنا هذا .

107 ـ أبي آدم . ص ١١٠ـ١١١ .

محمد ﷺ !!

ونحن نتساءل: هل من دليل نقليٍّ من كتاب أو سنة يتضمّن - ولو إشارة - إلى تلك المرحلة البشرية بأطوارها المزعومة؟

ومن أين أتى المؤلف بتقدير الـ «بضعة ملايين» التي قضاها البشر في عملية التسوية المزعومة ؟ ومن أين عرف هذه المدة ؟

« ثمّ » هي صاحبة السر !!

إنها أداة العطف « ثُمّ »..

إنها هي التي أوحت إليه بما سبق !!

إنه يستدل بوجود (ثم) في آيات الخلق، ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [سورة الأعراف: ١١]؛ يستدل بوجود أداة العطف (ثم)، قائلا بعد إيراده للآية السابقة:

«وهما مرحلتان في عمر البشرية، لعلهما استغرقتا بضعة ملايين من السنين، والتصوير هنا يقابل التسوية في مواضع أخرى، ومع ملاحظة استعمال الأداة (ثم) التي تفيد التراخي بين الأمرين، وهو ما سنفرد له معالجة أخرى» [١٠٨].

ثم يعود إلى الآية المذكورة بعد عشرات الصفحات من كتابه ليقول: «أما النص في سورة (الأعراف) فيوحي بوجود مسافة زمنية بين مرحلة

---

108 - أبي آدم، ص ٩١.

التصوير (أو التسوية) وبين الأمر بالسجود، كما سبقت ملاحظته»[109].

هل صارت (ثم) لمجرد أنها تفيد التراخي مع الترتيب دليلا على تلك الملايين من السنين التي استغرقتها عملية التسوية المزعومة ؟!

إن هذا كلام يحتاج إلى نص صريح، وإلا فهو تخمين، ورجم بالغيب، وقول على بغير علم.

على أنّ قَصْر إفادةِ (ثم) في آية سورة الأعراف على التراخي الزمنيِّ فقط أمر لا يُسلَّم به للمؤلف، بل قد تفيد معنىً آخرَ غيرَ التراخي الزمنيِّ في هذا الموضع، وهو ما أشار إليه العلامة «الآلوسيّ» في تفسيره لسورة البقرة، إذْ قال:

«و (ثم) في آية الأعراف للتراخي الرُّتْبِيِّ، أو للتراخي في الإخبار»[110].

ثم عاد «الآلوسيُّ» لتفصيل هذا الأمر وتوكيده مرةً أخرى عند تفسير الآية المذكورة من سورة الأعراف، وإضافةِ وجْهٍ آخر، فقال:

«**إن (ثم) لترتيب الإخبار لا للترتيب الزمانيّ**، والمعنى خلقناكم يا بني آدم مُضَغاً غيرَ مصوَّرة، ثم صوّرناكم بشَقِّ السمعِ والبصرِ وسائرِ الأعضاء، كما روي عن يمان، أو خلقناكم في أصلاب الرجال ثم صورناكم في أرحام النساء، كما روي عن عكرمة، ثم نخبركم أنا قلنا

---

109 ـ السابق، ص ١٤٤.

110 ـ روح المعاني ١/ ٢٣٢.

للملائكة إلخ، وإلى هذا ذهب جماعة من النحويين منهم عليُّ بنُ عيسى، والقاضي أبو سعيد السيرافي وغيرهما، وقال الطيبي: **يمكن أن تُحمَل (ثم) على التراخي في الرُّتْبة**؛ لأن مقام الامتنان يَقْتضِي أن يقال: إنّ كَوْن أبيهم مسجودا للملائكة أرفعُ درجةً مِن خَلْقهم وتصويرِهم» [111].

وهكذا يتهاوَى القصر (أعني الخيال) الذي أَسّسه المؤلف على أداة العطف (ثم).

ونسير معه خطوة أخرى لهدم أسطورته، فنقول:

إنّ هناك آياتٍ مناظرةً في القرآن الكريم، جاء فيها العطف بالأداة (ثم)، فهل نحكم فيها بالتراخي الزمنيِّ الذي يفيد ملايين السنين، على مذهب المؤلف ؟

لِيقرأْ معنا قولَ الله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [سورة غافر: ٦٧].

وليقل لنا: هل بين كلِّ (ثم) وأخرى في الآية ملايين السنين؟

هل هناك بضعة ملايين من السنين بين الخلق من تراب والخلق من نطفة، وبضعة ملايين أخرى بين النطفة والعلقة، وبضعة ملايين مماثلة بين العلقة وبين الخروج إلى مرحلة الطفولة، ومِثْلُها بين الطفولة وبلوغِ الأَشُدّ، ومقدارُها بين بلوغ الأَشُدِّ ووصولِ الشيخوخة؛ حيث الأداة

---

111 - السابق ٨/ ٨٦.

المستخدمة في العطف هنا هي (ثم) ؟؟ !!

لقد وجد المؤلف أنّ هذه الآيةَ ـ آيةَ سورةِ غافر ـ تقف في طريقه وتنسف خياله، فماذا فعل حيالها ؟

لقد ذكر الآية، وقال معقِّبا عليها:

«وهنا يَذْكُر المرحلتين: مرحلة الخلق من تراب، ومرحلة الخلق من نطفة، وهما مرحلتان منفصلتان في الظاهر، وقد ربط القرآن بينهما بحرف التراخي (ثم) للتعبير عن المسافة الزمنية بينهما» (١١٢).

فلجا إلى المراوغة والخداع؛ حيث قال «المسافة الزمنية»، واكتفى بهذا التعبير، دون أن يُصَرِّح بما صرّح به سابقا من أنها ملايين السنين، حتى يخرج من الإشكال.

ولننتقل إلى آيات أخرى، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [سورة المؤمنون: ١٢ ـ ١٤].

وقد ذكر المؤلف هذه الآيات، ثم قال:

«ولنتأمل استعمال (ثم) في الآيات، بجانب استعمال الفاء، فبين (الخلق) من الطين و (الجعل) ﴿نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ مسافة زمنية لا

---

112 ـ أبي آدم، ص ٩٥.

يعلمها إلا الله، استغرقتها عمليات التسوية، وهذا (الجعل) تعبير عن جانب استكمال (الخلق)، ثم تكون النطفة علقة، ولعل تقدير ذلك تم في زمان متطاول أيضا» [١١٣].

فالمؤلف يقرر هنا أن عمليات التسوية استغرقت مساحة زمنية لا يعلمها إلا الله، بينما ذكر سابقا أكثر من مرة أنها استغرقت بضعة ملايين من السنين (والبِضْع: من ثلاثة إلى تسعة) [١١٤].

فهل كان بين الجعل نطفة، والجعل علقة ملايين السنين أيضا، حيث جعل بين النطفة والعلقة زمانا متطاولا كذلك ؟

ثم يفاجئنا المؤلف بأمر غريب في تعليقه على ختام الآيات الوارد في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾؛ قائلا:

«والمعنى التاريخي لإنشاء هذا الخلق هو النقلة من البشر إلى الإنسان، وهو خلق آخر فعلا، إلى جانب احتمال أن يكون المراد هو المولود الجديد» [١١٥].

فما الذي أقحم الانتقال من (البشر) إلى (الإنسان) هنا ؟!!

إن الآيات تتحدث عن أطوار خلق الجنين في بطن أمه، والتي بعدها

---

113 ـ أبي آدم، ص ١١١.

114 ـ قال في «مختار الصحاح»: و (بِضْعٌ) فِي الْعَدَدِ بِكَسْرِ الْبَاءِ وَبَعْضُ الْعَرَبِ يَفْتَحُهَا، وَهُوَ مَا بَيْنَ الثَّلَاثِ إِلَى التِّسْعِ، تَقُولُ: بِضْعُ سِنِينَ وَبِضْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا وَبِضْعَ عَشْرَةَ امْرَأَةً، فَإِذَا جَاوَزْتَ لَفْظَ الْعَشْرِ ذَهَبَ الْبِضْعُ، لَا تَقُولُ: بِضْعٌ وَعِشْرُونَ.

115 ـ أبي آدم، ص ١١٢.

ينشئه الله خلقا آخر، أي يخرجه طفلا، كما أوضحت آيات أخرى، مثل ما ورد في أوائل سورة الحج، فيأتي المؤلف ليقول بأن إنشاء الإنسان خلقا آخر هو نقلة من المرحلة البشرية (المزعومة بأوصافها المنحطة عند المؤلف)، إلى المرحلة الإنسانية الكاملة !!

فأيُّ تعسّف وفساد في التأويل هذا الذي يصنعه صاحب أسطورة «أبي آدم» ؟!!

إخضاع الأدوات النحوية لهواه

ثم إن هناك آيات تحدّثت عن الخلق والتسوية والتعديل من دون استخدام (ثم) الدالة ـ من بين ما تدل عليه ـ على التراخي، وإنما باستخدام (الفاء) التي تفيد الترتيب والتعقيب ـ أي بلا تراخٍ، الأمر الذي يعكّر صفو المؤلف، ويشوش عليه تصوره بأن مرحلة التسوية التي خضع لها البشر استغرقت زمانا متطاولا يقدر بملايين السنين، بحسب ما أوْحتْ به إليه (ثم).

والآيات هي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [سورة الانفطار: ٦ ـ ٨].

لما وجد المؤلف أن استخدام أداة العطف (الفاء) هنا ليس في صالحه، لإفادتها الترتيب والتعقيب، وهو لا يريد التعقيب، وإنما يريد التراخي الزمني الهائل؛ عَمَد إلى التحايل، وذهب إلى القول بأن الفاء هنا تفيد التراخي، وليس التعقيب المباشر، فقال:

«قد يعبر النص القرآني عما شأنه التراخي بالفاء، فهو يضمّنها معنى (ثم)، أو بتعبير أدق: يوظفها في موقع (ثم)، كما جاء في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾»[116].

وهكذا يتلاعب بالأدوات النحوية:

فعندما يرى أن (ثم) في صالحه يجزم بأنها للتراخي الزمني الهائل (بضعة ملايين من السنين).

وعندما لا تكون في صالحه يتهرب ويراوغ ويقول «مسافة زمنية لا يعلمها إلا الله».

وإذا اعترضتِ (الفاءُ) طريق خيالاته سارَع إلى صَرْفِها عن وظيفتها الحقيقية، التي هي الترتيب مع التعقيب، وجعَلها ـ بمزاجه ـ تعمل عمل (ثم)، فتفيد التراخي !!

ألم أقل إنه لا دليل عنده سوى التلاعب بالألفاظ وتحميلها ما لا تحتمله شرعا ولا لغة .. وكذلك التلاعب بالاستخدامات اللغوية للأدوات النحوية، والتصرّف فيها بحسب هواه ؟!!

استدلاله بـ (ثـم) احتماليٌ وليس بقطعيّ

ونعود مرة أخرى لأداة العطف (ثم)، لأنه ـ كما سبق أن أشرت ـ قد بَنَى عليه تصوراته، وتقديراته الجزافية، لنقول:

---

116 ـ أبي آدم، ص ١١٢ ـ ١١٣.

إن استناده إلى دلالة (ثم) على التراخي الزمنيِّ في الآيات أمرٌ احتماليّ، أي يحتمل أن تكون للتراخي الزمنيّ، ويحتمل أن لا تكون كذلك، وقد سبق أن نقلنا عن الإمام «الآلوسيّ» توكيدَه على أن (ثم) في آية سورة الأعراف ليست للترتيب الزمانيّ، وإنما هي للتراخي الرُّتْبيّ، أو التراخي في الإخبار، وقد ذَكر أنّ هذه المعاني قد ذهب إليها جماعة من النحاة.

ونضيف إلى هذا ما ذكره الإمام اللغويُّ الحجة «ابن هشام»، حيث قال في معنى (ثم) أنها: «حَرفُ عطفٍ يقتضِي ثلاثةَ أمور: التشريك في الحكم، والترتيب، والمُهلة، وفي كلٍّ منها خلاف» [117].

وعلى فرض أنها تفيد التراخي الزمنيّ؛ فمِن أين لصاحب كتاب «أبي آدم» أنّ تلك المسافةَ الزمنيةَ تقدَّر ببضعة ملايين من السنين؟

هل أفادتْه بهذا التقدير أداة العطف (ثم) أيضا ؟!!

عودة إلى آية سورة الأعراف، وردُّ ما قال

ونعود إلى آية سورة الأعراف وهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [سورة الأعراف: ١١]، ونضعها بجوار آية سورة الانفطار، وهي قوله تعالى: ﴿خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ [سورة الانفطار: ٧]، فنثبت عكسَ ما قال المؤلف، ونبطل ما ذهب إليه، على النحو التالي:

---

117 ـ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، الإمام أبو محمد عبد الله بن هشام الأنصاريّ المصريّ ١/ ١١٧، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح – القاهرة.

إن النحاة يقولون بأن (ثم) قد تستعمل في معنى الفاء، وهو الترتيب مع التعقيب، أي بدون فاصلٍ أو مهلة زمنية، كما أشار إلى هذا ابن هشام في قوله:

«والظاهر أنها [يعني ثم] واقعةٌ موقعَ الفاء في قوله:

كَهَزِّ الرُّدَيْنِيِّ تَحْتَ الْعَجَاجِ ** جَرَى فِي الأَنَابِيْبِ ثُمَّ اضْطَرَبْ (١١٨)

إذِ الهزُّ متى جرى في أنابيب الرُّمْح يعقبه الاضطراب، ولم يتراخَ عنه» (١١٩).

فإذا أضفنا إلى هذا نفْيَ الإمامِ «الآلوسيّ» أن تكون (ثم) في آية سورة الأعراف دالةً على التراخي الزمنيّ ..

وأضفنا إليه أيضا آية سورة الانفطار التي استخدمت أداة العطف (الفاء) في عطف التسوية على الخلق، والتعديل على التسوية، وأجريناها على بابها وعملها الأصليّ، وهو إفادتها الترتيب والتعقيب ..

إذا وضعنا كلَّ هذا أمامَنا؛ ساغ لنا أن نقول:

إنه لا توجد مسافة زمنية بين الخلق والتسوية وأمْرِ الملائكة بالسجود على الإطلاق؛ لا ساعة .. ولا يوم .. ولا سنة .. ولا ملايين من السنين.

---

118 ـ الرُّدَيْنِي: الرُّمح، نسبة إلى رُدَيْنة، وهي امرأة كانت تُقوِّم الرِّماح. (المعجم الوسيط ١/ ٣٤٠)، والعَجَاج: الغبار أو الدخان. (السابق ٢/ ٥٨٤)، والمقصود بالأنابيب التجويف الذي يكون بداخل الرمح.

119 ـ مغني اللبيب ١/ ١١٩، شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، علي بن محمد بن عيسى، أبو الحسن، نور الدين الأشموني الشافعي (المتوفّى ٩٠٠هـ) ٢/ ٣٦٥، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، ط الأولى ١٤١٩هـ ١٩٩٨م.

وهذا الذي نقول به ـ كما يظهر ـ صحيحٌ من حيث اللغة، مؤكَّدٌ مِن حيث الشرع.

فأما اللغة؛ فلِما ذكرنا من كلام النحاة والمفسرين.

وأما الشرع؛ فلِما أخبَرَنا اللهُ تعالى في محكم التنزيل من أنه سبحانه إذا قضى أمرا أو أراد شيئا، قال له كن فيكون، وهذا في آيات كثيرة.

منها قوله جل شأنه: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [سورة البقرة: ١١٧].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [سورة النحل: ٤٠].

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [سورة يس: ٨٢].

وهكذا تتزلزل أسطورة صاحب كتاب «أبي آدم»، وما زعمه من وجود فترة من الزمن، تقدّر بملايين السنين، مرّ بها المشروع البشريّ البطيء لخلق الإنسان، قبل مجيء آدم ﷺ.

التعسف في تأويل آية سورة الأنعام

وقد تأول المؤلف آيةَ سورة الأنعام المتضمنةَ للأجلين، بما يخدم فكرته الخيالية، وحاول أن يجعلها دليلا على وجود المرحلة البشرية (المزعومة)، فقال بما لم يقل به، ولا يسوِّغه أحدٌ من أهل العلم.

قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ

مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ [سورة لأنعام: ٢].

أورد المؤلف هذه الآية، وذكر أنّ خلاصةَ آراءِ المفسرين في المقصود بالأجلين، على ثلاثة أقوال:

أحدها: أن المقصود بالأجل الأول: أجل الموت، والآخَر: القيامة.

وثانيها: أن المقصود بالأجل الأول: ما بين أن يُخلَق إلى أن يموت، والثاني: ما بين الموت إلى البعث (وهو البرزخ).

وثالث الأقوال: أن الأجل الأول: النوم، والثاني: الموت.

ثم عقّب قائلا:

«ونحسب أن هناك احتمالا غاب عن هذه التقديرات، وهو أن الأجل الأول (النكرة) هو أجل الحياة البشرية السابقة على العهد الإنساني، وأما الأجل المسمى؛ فهو أجل كل فرد من المكلفين، فالأول مُجمَل يندمج فيه الكل في واحد، والثاني مفصَّل لكل فرد، لتعلقه بالمسؤولية والحساب والمصير، ولا مانع في نظرنا من إرادة ذلك في الآية» [١٢٠].

والواقع أن هذا تفسير غير سائغ للآية، ولا وجه له بحال من الأحوال، لسبب يسير؛ هو أنه لا يوجَد في (القاموس الإسلاميّ) مصطلح ولا شيء اسمه «الحياة البشرية السابقة على العهد الإنسانيّ» ـ الذي فسّر به المؤلف الأجل الأول في الآية ـ إلا في خيال صاحب كتاب «أبي آدم»، فليقل ما شاء، وليتحمّل وزر ما يقول.

---

120 ـ أبي آدم، ص ٩٥.

لا دلالة من خلال نشأة اللغة على وجود المخلوقات البشرية (المزعومة)

ولقد حاول المؤلف أن يوهم القارئ بأن التطورَ الذي صاحب مسيرة اللغة، بدءً من نشأتها في العهد البشري (المزعوم) حتى ارتقت في العهد الإنساني؛ دليلٌ على وجود ما يسميه المرحلة البشرية، حيث إن الإنسان بلغ مرحلة من الرقي بعد جِدٍّ وكفاح لملايين السنين، في أثناء المرحلة البشرية.

يقول المؤلف: «بل إننا حينما نقرأ قصة ابني آدم (هابيل وقابيل) يبهرنا فيها غزارة التجريد في المعنى، وثراء اللفظ، حتى إن الإنسانية ما زالت دون بلوغ الأفق الأخلاقي والقيمي الذي عبّرت عنه تلك القصة، مما يدل على درجة من الحضارة الدينية، بلغها الإنسان في ذلك الزمان، بعد أن كافح ملايين السنين في مرحلته البشرية»[١٢١].

ثم أورد الآيات القرآنية التي ذكرت قصة ابنَيْ آدم وأخذ يدلِّل بما حَمَلَتْه من ألفاظٍ ومعانٍ على ما بلغَتْه الإنسانيةُ مِن رُقِيٍّ في اللغة، مستفيدةً مِن المرحلة البشريةِ - في زعمه -.

ثم قال: «ومن المعاني الغيبية المجردة ذات الدلالة العميقة على مذهبنا هذا ما جرى على لسان إبليس وهو يغري آدم وزوجه بالأكل من الشجرة المحرمة، قال: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا

121 - أبي آدم، ص ١٣٢.

مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [سورة الأعراف: ٢٠] !!

فمتى عرف آدم وزوجه معنى الخلود؟ وكيف لهما أن يتخيلاه، وهو معنى مرتبط بواقع لم يحدث من قبل، على فرض أنهما أول المخلوقات البشرية ؟؟ ونعني به واقع (الموت) وهو ضد الخلود؟

إن ذلك يؤكد أنهما عاينا أجيالا سابقة حصدها الموت، وابتلعها الفناء» (١٢٢).

إنه يريد أن يستدل بأن وجود البشر قبل آدم وحواء، وانتهاءهم بالفناء والموت - في زعمه - هو الذي كان سببا في معرفة آدم وزوجه بمعنى (الخلود) الذي هو ضد الفناء، وإلا فكيف كان يتأتّى لهما - مِن وجهة نظره - معرفةُ مثل هذه المعاني لو قلنا بأنهما كانا أول المخلوقات البشرية؟

هذه مشكلة عويصة في نظر المؤلف!!

ونحن نقول له: هوِّن عليك؛ فإنك ما أتيت بشيء ذي بال، وما توهّمْتَه دليلا هنا لا يسعفك أبدا، ولا وزن له، ومن السهولة ردّه ونقضُه.

أمّا مِن أين لآدم وزوجِه بمعرفة معنى (الخلود)، الذي هو ضد (الموت)؛ فإنهما قد عرفاه وعرفا غيره من المعاني والألفاظ بتعليم الله تعالى لآدم الأسماءَ كلها.

ألم يَسمع بقول الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [سورة البقرة: ٣١] ؟!! ألا يعلم أنّ لفظ ﴿كُلَّهَا﴾ في الآية الكريمة موضوع للإحاطة والعموم

---

122 - أبي آدم، ص ١٣٣.

ـ كما ذكر القرطبيُّ في تفسيره ـ [١٢٣].

أم أن مؤلف كتاب «أبي آدم» لا يعتقد كما يعتقد المسلمون منذ عصر النبوة إلى يومنا هذا بأن الله علّم آدم أسماء كل شيء، حتى السوط والعصا؟

إن كلامه ـ مع الأسف ـ يوحي بهذا، حيث يقول:

«ومن خلال آدم بدأت الإنسانية مسيرتها بخطوات قاصدة راشدة، على حين بادت الموجودات البشرية الطليقة الشاردة لتبدأ المرحلة الجديدة مرحلة التكليف الديني .. بعبادة الإله الخالق الواحد، بعد أن تم للإنسان التعرف على الكون من حوله، من خلال الأسماء التي تحدد وجود كل شيء والتي أعانه الله سبحانه على استيعابها» [١٢٤].

إننا نقول له: يا دكتور: إن آدم عليه السلام قد علّمه الله وألهمه، فهو معلَّم من ربه، وليس بمتعلِّم بنفسه، وعبارتك الأخيرة ليست خالصة نقية، ولا مُريحة، وإلا فما الذي يمنعك أن تقول: (والتي علّمه الله سبحانه إياها) ؟

فلم هذا الرَّوَغَان ؟!!

ويحاول المؤلف أن يوهم القارئ ـ وما أكثر ما يحاول إيهام قرائه بمهارة وخِفّة ـ مرة أخرى من خلال اللغة؛ بأن آدم لم يكن أولَ مخلوقٍ

---

123 ـ الجامع لأحكام القرآن ١/ ١٩٤.

124 ـ أبي آدم، ص ١٣٤.

بشريٍّ، فيقول:

«وبقي سؤال لم يطرحه أحد ممن تناولوا هذه القصة في القديم والحديث، وهو: مِن أين جاءت تسمية آدم ؟!

والاسم رمز المسمَّى؛ فهل يمكن أن يطلَق على آدم هذا الاسم دون أن تكون البشرية قد قطعت شوطا هائلا في الرقيّ اللغوي قبل مرحلة الإنسانية الآدمية؟ وإذا قرأنا قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ .. فهل لا يوحي منطوق الآية على هذا النحو بأن الساحة كانت حافلة بأسماء كثيرة لموجودات مادية، أو أسماء لمعانٍ مجرَّدة، وأن حصيلة ذلك كله كانت في عقل آدم ؟ أو استطاع آدم أن يُحصِّلها !!

قد يقول قائل: إن اسم (آدم) هو اختيار الله، أطلقه على أول خليفة في الأرض !! » [١٢٥].

هل يريد المؤلف أن يقول بأن تسمية آدم قد جاءت مِن قِبَل أبويه (البشريين)، أو مِن أحدهما .. حيث إن الساحة ـ في زعمه ـ كانت حافلة بأسماء كثيرة حسية ومعنوية ؟!

ولماذا يذكر بصيغة التشكيك الرأيَ القائل بأن اسمه من عند الله، ومِنَ اختياره سبحانه ؟

ما الذي يمنع من صحة هذا القول ؟

وهل لديه دليل على صحة البديل الذي ذَكَرَه ؟

125 ـ أبي آدم، ص ١٣٥.

إن آدم قد خلقه ربه، وأوجده من عدم، وأطلق عليه هذه التسمية الأزلية الخالدة، ولم يكن له أب سماه، أو اكتسب اسمه من خلال النضج اللغويِّ الذي بلغته المرحلة البشرية (المزعومة) في نهاية عهدها، وبداية وجود آدم.

لماذا الإصرار على تجاهل تعليم الله لآدم وذريته ؟

وإذا كان المؤلِّف يدَّعِي أن البشرية في آخر عهدها قد بلغت حدًّا من الرقيّ اللغويّ ترك أثره في آدم وزوجه، من خلال معرفة معنى الخلود وغيره، لأنهما ـ في زعمه ـ قد عاينا أجيالا سابقة من البشر، ومن خلال تسمية آدم؛ إذا كان ذلك كذلك: فلِماذا لم يتأثّر ولدا آدم بمن كان قبلهما من البشر في تعاملهم مع جثث الموتى؟ لماذا لم يتأثر ابن آدم عندما قتل أخاه، وبقِي متحيِّراً لا يعرف كيف يتصرف حتى رأى صنيع الغراب، فاقتدى به في موارة جثمان أخيه ؟! ـ أو كما يزعم المؤلِّف تولَّى الغراب تعليمه ؟! ـ

إن المؤلف يحاول أن يتجاهل مبدأ تعليم الله لآدم وذريته ما يلزمهم تعليمُه لعمارة الأرض، والخلافِة فيها، ويُجهِد نفسه ليثبت أن آدم تعلم من رصيد الخبرة الذي بقي في ذاكرته من (العهد البشريّ)، سواء أكان في موضوع اللغة أم كان في غيره.

ومن هذا المنطلق نراه يغالط في مسألة دور الغراب في قصة ابني آدم، حيث قال:

«ومِن المُسلَّم به علميا أن وجود البشر كان مسبوقا بوجود الكائنات الأخرى من الطيور والحيوانات في البر والبحر، وكانت هذه تشكِّل عالما من الكائنات بأشكالها وأنواعها، كما كان لها تأثير مباشر على الوجود البشري، فمنها كان قوت البشر ووسائل عملهم .. بل تولى بعض الطيور مهمة تعليم هذا المخلوق ما هو بحاجة إليه من سلوكيات، ودور الغراب في قصة ابني آدم ذو دلالة ظاهرة في هذا المجال: ﴿فَبَعَثَ اللهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ [سورة المائدة : ٣١]، أي أن الإنسان في مطلع فجره لم يكن يدفن جثث الموتى من جنسه، حتى شاهد - وهو في قمة مأساته - الغراب يلقنه درس الدفن، بعد ما بلغ سن الرشد، ودخل في المرحلة الآدمية الجديدة، ولا يبعد أن نتصور أن البشر كانوا في بداية وجودهم، وقبل رشدهم يتآكلون ويتفارسون .. أي يأكل بعضهم بعضا» [١٢٦].

إن هذا الكلام أقلُّ ما يُوصَف به هو أنّه غير صحيح؛ حيث إن الغراب كان مبعوثا من عند الله، ومكلَّفا بهذه المهمة .. ولماذا يتجاهل المؤلِّف قوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللهُ غُرَابًا ...﴾؟

أم أنه يراوغ، ويُسَوِّغ لنفسه أنْ يفعل كل ما يمكنه فعله، حتى ولو كان الإصرارَ على تجاهل أن الله تعالى هو الذي علّم آدمَ أسماءَ كلِّ شيء، وأنه تعالى هو الذي سماه، وهو الذي بعث الغراب لِيُرِيَ «قابيلَ» كيف يوارِي

---

126 - أبي آدم، ص ١٢٨.

سوأة أخيه؛ يعمد إلى هذا كله من أجل إثبات أسطورته الغريبة، وهي أن هناك مشروعا بشريا لخلق الإنسان، أو مرحلةً بشريةً أوجدها الله قبل آدم، الذي جاء من أب وأم بشريين، ثم أبادها الله، كي تخلوَ الساحة لآدم وذريته من أولئك البشر الهمج !!

صريح القرآن وصحيح السنة يُقرّران خلقَ الإنسان (آدم) من الطين

ولقد أشاع مؤلِّف كتاب «أبي آدم» في كتابه طولا وعرضا أن المخلوق من الطين هو (البشر)، وأنه قضى بعد الخلق من الطين ملايين السنين في عملية التسوية، ضمن المشروع الإلهيّ (المزعوم) لخلق الإنسان، حتى جاء آدم الذي يُعَدُّ ـ في خيال المؤلِّف ـ بداية (الإنسان)، فخُلِق مِن أبٍ وأمٍّ، وكذلك زوجه حواء، فالبشر ـ عنده ـ مخلوق من طين، وأما الإنسان (آدم) فمخلوق مِن أبٍ وأمٍّ.

وهو لا يريد أن يُقِرّ بأن الإنسان والبشر سواء؛ لا فرق بينهما عند أحد من أمة محمد ﷺ، على مدى أكثر من أربعة عشر قرنا من الزمان، وهو مُعجَبٌ برأيه، متبجِّحٌ بشذوذه الفكريّ عن إجماع الأمة.

والوقع أنّ صريح القرآن الكريم وصحيح السنة يبطلان ادعاءه بأن آدم خُلِق من أب وأم، ويثبتان إثباتا قطعيا بأن الإنسان خُلق من طين، ويَنُصّان صراحة على أن آدم ـ على وجه التحديد ـ خُلق من تراب، ومِن طين ، ومِن صلصال من حمإٍ مسنون.

ولأنّ هذه النصوص القرآنية الصريحة والأحاديث النبوية الصحيحة

تَهدم ما أشاعه وتبناه في كتابه هدْما أكيدا؛ فإنه قد تجاهلها، ولم يُشِر إليها من قريب أو بعيد.

ونورد طائفةً مِن هذه الآيات والأحاديث على النحو التالي:

أما الآيات القرآنية فمنها:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [سورة آل عمران: ٥٩].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«ولكن الرّبَّ جلّ جلالُه أراد أن يُظهِر قُدْرَتَه لخِلْقِه حين خَلَق آدم لا مِن ذَكَرٍ ولا مِن أنثى، وخلق حواء مِن ذَكَرٍ بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذَكَرٍ، كما خلق بقية البرية من ذَكَرٍ وأنثى» [١٢٧].

ومنها قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [سورة الإسراء: ٦١].

أليست هذه الآية تدل صراحة على خَلْق آدم ـ شخصيا ـ مِن طين، وإلا فمَن ياترى يكون المقصود بقول إبليس ـ فيما حكاه الله تعالى ـ ﴿قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ ؟!!

وقوله جل شأنه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [سورة لقمان: ٢٦].

---

127 ـ تفسير القرآن العظيم، الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي ١/ ٣٦٧، دار الغد العربي – القاهرة، ط الأولى ١٤١١هـ ١٩٩١م.

وقوله سبحانه: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [سورة الرحمن: ١٤].

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ [سورة السجدة: ٦ - ٩].

وأما السنة فمنها:

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَّ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الْأَرْضِ: جَاءَ مِنْهُمُ الْأَحْمَرُ، وَالْأَبْيَضُ، وَالْأَسْوَدُ، والأصفر، وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالسَّهْلُ، وَالْحَزْنُ، وَالْخَبِيثُ، وَالطَّيِّبُ» (١٢٨).

وعن أم المؤمنين عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ» (١٢٩).

---

128 - رواه أبو داود في ك السنة ب في القدَر ٢/ ٤١٥ رقم ٤٦٩٣، والترمذي في ك التفسير ب ومن سورة البقرة ٤/ ٤٤٤ رقم ٢٦٩٥، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، وأحمد في المسند ج ٣٢ ص ٣٥٣ و ٤١٣ رقم ١٩٥٨٢ و ١٩٦٤٢، والحاكم في المستدرك ٢/ ١٦١- ١٦٢ وقال: حديث صحيح الإسناد، ووافقه الذهبيّ في التلخيص، وابنُ حبان في صحيحه ك التاريخ ب بدء الخلق ١٤/ ٢٩ رقم ٦١٦٠، والبيهقيُّ في السنن الكبرى ك السِّيَر ب مُبْتَدَأِ الْخَلْقِ ٩/ ٦ رقم ١٧٧٠٨، والبزارُ في مسنده ٨/ ٤٢ رقم ٣٠٢٦.

129 - رواه مسلم في ك الزهد ب في أحاديث متفرقة ٤/ ٢٢٩٤ رقم ٢٩٩٦، وأحمد في المسند =

فهل أبْقت هذه الآياتُ الصريحةُ والأحاديثُ الصحيحةُ وأمثالُها مما جاء في القرآن والسنة مجالا للمراء في أن «آدم» لم يُخلق من أب وأم، وأنه إنما خلقه الله عز وجل من الطين ؟

إنكارُ خَلقِ حواءَ من آدم والردُّ عليه

وكما ذهب المؤلف إلى أن آدم خلق من أبوين، وأنكر أن يكون قد خلقه الله من الطين؛ ذهب كذلك إلى القول بأن حواء قد خُلِقَتْ خلقا مستقلا من أب وأم، وأنكر أن تكون قد خُلقت من آدم، وهذا هو نصُّ كلامه :

«غير أن خلْقَ زوج آدم من نفسه مشكل، فهل حواء من ضلع آدم كما وردت بذلك آثار؟ أو أن حواء قد خُلِقت خلْقا مستقلا، كما هو شأن آدم؟

الاحتمال الأخير هو الراجح في نظرنا لأمرين:

أولهما: أنّ كثيرا من العلماء اعتبروا مسألة الضلع مجرّد رمز لطبيعة المرأة وفطرتها.

ثانيهما: أن خلق حواء من نفس آدم مؤول على أنها من نوعه وجنسه، وقد جاء ذلك بالنسبة إلى كل زوج في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ [الروم: ٢١] »[١٣٠].

= ٤٢/ ١٠٩رقم ٢٥١٩٤، والبيهقيُّ في السنن الكبرى ك السِّيَرِ ب مُبْتَدَأِ الْخَلْقِ ٩/ ٦ رقم ١٧٧٠٩.

130 ـ أبي آدم، ص ٨٣ ـ ٨٤.

وبداية نتساءل: ما المشكلة في أنْ تكون حوّاءُ قد خُلِقت من آدم ؟!

في الواقع إنه لا توجد أدنى مشكلة؛ لا شرعية، ولا عقلية، والعقل الذي يُسلِّم بخلق آدم من تراب، لا يوجد عنده أيُّ إشكال في خلق حواء منه عليه السلام، وسبحان مَن هو على كل شيء قدير.

وأما الاعتباران اللذان بنى عليهما رفضَه أن تكون حواء خُلِقت من آدم؛ فلا وزن لهما، ولا يسعفانه في الاستدلال.

فأما الاعتبار الأول الذي ذكره، وهو أن كثيرا من العلماء اعتبروا مسألة الضلع مجرد رمز لطبيعة المرأة وفطرتها؛ فهو أمر من ادعائه هو، حيث إن الكثرة العظيمة من جماهير علماء الأمة لم يُؤثَر عنها هذا الذي يدعيه، مِن رفْضِ كون حواء مخلوقةً من ضلع آدم، ومَن أراد أن يقف على هذه الحقيقة فليرجع إلى كتب التفسير، وشروح السنة، وسيعلم أنّ المؤلِّف إنما يهوِّل الأمور أمام القارئ لكتابه.

وأما استدلاله الثاني؛ فلا يعدو أن يكون تأويلا غير سائغ، وصرفا للفظ عن ظاهره دون مقتضٍ ـ كما هو نهْجه ـ، ولا قيمة له أمام الآيات والأحاديث الدالة على خلق حواء من آدم، وما عليه علماء الأمة من أن هذا الخلق إنما هو على الحقيقة.

وعلى هذا فإن كلامه مردود عليه، حيث إن القرآن والسنة يدلان على أن حواء قد خُلِقت من آدم.

قال الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ

وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [سورة النساء: ١].

وقال عز وجل : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [سورة الأعراف: ٨٩].

وإذا رجعنا إلى ما ذكَرَه أئمةُ التفسير؛ مثل القرطبيّ، والآلوسيّ، وابن كثير، والزمخشريّ وغيرهم في تفسير الآيتين؛ فسنجد أنّ المرادَ بقوله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾: آدمُ عليه السلام، وبقوله سبحانه: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾: حوّاءُ رضي الله عنها، خلقها الله تعالى من ضلع آدم [١٣١].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ، فَإِنَّ المَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ ...» الحديث [١٣٢].

فلماذا نحيد عن ظاهر تلك النصوص المعصومة، وننصرف إلى تأويلات معاكِسة لما عليه الراسخون من أولي العلم من فهمٍ لها، بزعم أنّ في إجرائها على ظاهرها وحقيقة مدلولها مشكلة؟

---

131 ـ يراجَع: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/ ٢٠٧ و ٧/ ٢١٤، تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ٤٤٨ و ٢/ ٢٨٠، روح المعاني للآلوسي ٤/ ١٨١ – ١٨٢ و ٩/ ١٣٨، الكشاف للزمخشري ١/ ٢٤٠ - ٢٤١، صفوة البيان لمعاني القرآن، للشيخ حسنين مخلوف، ص ١٠٥ – ١٠٦، ط وزارة الأوقاف بالكويت.

132 ـ رواه البخاري في ك أحاديث الأنبياء ب خلق آدم وذريته ٤/ ١٣٣ رقم ٣٣٣١، ومسلم في ك الرضاع ب الوصية بالنساء ٢/ ١٠٩١ رقم ١٤٦٨.

ليس في سؤال الملائكة دلالة على وجود المشروع البشريّ ـ المزعوم ـ قبل آدم

ولقد ذهب المؤلف إلى أن قول الملائكة ـ فيما حكاه الله تعالى في القرآن الكريم ـ: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [سورة البقرة: ٣٠]؛ ذهب إلى أنه دليل على وجود مجموعات من البشر الهمج المتوحشين ذوي السلوك الحيوانيّ قبل آدم، حيث إن الملائكة تعجّبت من استخلاف هؤلاء، والحال أنهم واقعون في الإفساد، غارقون في سفك الدماء، وعليه فقد زعم أن البشر كانوا موجودين بالفعل، وأنهم كانوا خاضعين للتعديل الإلهيّ، ضمن مشروع خلق آدم، الذي اخترعه وتخيله صاحب كتاب «أبي آدم» !!

يقول المؤلف: «لقد كان (البشر) خلال الأحقاب والعهود المتطاولة مجرد مخلوقات متحركة حيوانية السلوك، ولكنها تزداد في كل مرحلة تعديلا في سلوكها، ونضجا في خبرتها، وتلونا في طرائق التفاهم اللغوي فيما بينها، وربما كان هذا هو المقصود بسؤال الملائكة للرب ـ جل وعلا ـ ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠] .. كان هذا هو الواقع المشاهد، فتعجبت الملائكة من استخلاف هؤلاء المفسدين المتوحشين !! »[١٣٣].

ثم قال : «فموقع الجملة الملائكية: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ

---

133 ـ أبي آدم، ص ١٠٧.

لَكَ﴾ موقع الحال، أي: إننا غارقون في أنوار التقديس، في حين أن هؤلاء والغون في بحار الدماء، لا يعرفون دينا، ولا يعبدون إلها» [١٣٤].

والواقع أنه لا يوُجَد في كلام الملائكة وسؤالهم دليل على أنه كان هناك (بشر) قبل آدم، (مجرد مخلوقات متحركة حيوانية السلوك، تزداد في كل مرحلة تعديلا) كما ينعتهم المؤلف، فهذا ما لم يقل به أحد من قبل، ولا وجود له في أيٍّ من كتب التفسير أو كتب السنة على الإطلاق.

أما آية سورة البقرة المذكورة؛ فقد ذكر المفسرون فيها أقوالا:

أحدها: أن الملائكة لما سمعوا كلمة ﴿خَلِيفَةً﴾ [١٣٥] فهموا أنّ في بني آدم مَن يُفسد، إذِ الخليفة المقصود منه الإصلاح وترك الفساد.

وثانيها: أنّ الملائكة قد رأت وعلمت ما كان من إفساد الجنِّ وسفكهم الدماء، وذلك لأن الأرض كان فيها الجنُّ قبل خلْق آدم، فأفسدوا وسفكوا الدماء.

وثالثها: أنّ الله تعالى أعلمهم أن الخليفة سيكون من ذريته قوم يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء، فقالوا لذلك هذه المقالة، إما على طريق التعجب من استخلاف الله مَن يعصيه، أو مِن عصيان الله من يستخلفه في أرضه وينعم عليه بذلك، وإما على طريق الاستعظام

---

134 ـ أبي آدم، ص ١٤٠.

135 ـ أي في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [سورة البقرة: ٣٠].

والإكبار للفصلين جميعا: الاستخلاف والعصيان.

وقال قتادة: كان الله أعلمهم أنه إذا جعل في الأرض خَلْقا أفسدوا وسفكوا الدماء، فسألوا حين قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أهو الذي أعلمَهم أم غيرُه [١٣٦].

وقال الزمخشريّ: «فإن قلتَ: مِن أين عرفوا ذلك حتى تعجبوا منه وإنما هو غيب؟ قلتُ: عرفوه بإخبار مِن الله، أو مِن جهة اللوح، أو ثبت في علمهم أنّ الملائكة وحدهم هم الخلق المعصومون، وكل خلق سواهم ليسوا على صفتهم، أو قاسوا أحد الثقلين على الآخر، حيث أُسكِنوا الأرض فأفسدوا فيها قبل سكنى الملائكة» [١٣٧].

وإذا كان المؤلف متمسكا بأن الملائكة لا بد أنهم قد عاينوا خلقا أفسدوا في الأرض وسفكوا الدماء؛ فلا وجه للإصرار على أن يكون أولئك الخلق هم البشر الهمج ـ في زعمه ـ؛ حيث لا دليل على وجود خلق بهذا الوصف الذي تخيله، فضلا عن أنه لم يخطر على بال أحد من الأولين ولا الآخرين.

ولا مسوِّغ كذلك لأن نترك ما قال به أهل العلم مع وجاهته، ووجود ما يؤيده من الأدلة، وهو القول بأن الجنَّ كانوا هم النموذجَ المشاهَد والماثلَ أمام الملائكة، عندما قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ

136 ـ الجامع لأحكام القرآن ١/ ١٨٩ باختصار وتصرف.

137 ـ الكشاف ١/ ٦١.

الدِّمَاءَ﴾ [سورة البقرة: ٣٠].

أما ما يؤيده من الأدلة؛ فهو إخبار الله لنا في القرآن الكريم صراحة بأنّ الجنَّ خُلِقوا قبل الإنسان، حيث قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ [سورة الحجر: ٢٦ ـ ٢٧]، «أي من قبل خلق آدم» (١٣٨).

هل توقف الإفساد في الأرض بانقراض (البشر) المزعومين ؟

ويلاحظ أن المؤلف يجتهد في طول كتابه وعرضه في إلصاق كلِّ نقيصةٍ بـ (البشر) المزعومين، ويكرر القول بأنهم مصدر كلِّ شر، وأصلُ كلِّ بلاء، وأنهم عدوانيون متوحشون، والِغُون في بحار الدماء، مفسدون في الأرض ... إلى آخر ما اخترع وتخيل من نقائصهم، بينما جاء الإنسان أرقى منهم رتبة وتحضرا وسلوكا .. كما يحاول أن يُعلي مِن شأن الإنسان على الدوام (١٣٩).

ولو سلَّمْنا ـ جدلا ـ بما زعم؛ فهل يا ترى تَوَقَّف القتل والدمار، والولوغ في بحار الدماء بانقراض (البشر) وبداية عهد الإنسان ؟!!

لقد عاث الإنسان في أرض الله فسادا، وسفك من الدماء ما لا يحيط بمقداره ومداه إلا علامُ الغيوب، وأضرّ بالحياة والأحياء، وأهلك مِن

---

138 ـ الجامع لأحكام القرآن ١٠ / ١٧.

139 ـ انظر أبي آدم ـ على سبيل المثال ـ: ص ١١٥ – ١١٦.

الحرث والنسل، والبلاد والعباد ما لا يُحصى على مر التاريخ، وخاصة في العصر الحديث؛ عصرِ الحَرَبَين العالميّتين الأولى والثانية، وعصرِ احتلالِ اليهودِ المعتدين لفلسطين، وإشاعةِ القتل والدمار في أرجائها، حتى يوم الناس هذا، وعصرِ إبادة مجموعات أوربا الهمجية للهنود الحمر في تلك البقعة التي تسمى أمريكا !!

فهل مازال صاحب أسطورة «أبي آدم» مصرًّا على التحقير من شأن البشر الغابرين - زعم -، والإعلاءِ مِن شأن الخليفة الجديد (الإنسان) ؟!!

خمسة أسئلة حاسمة بشأن الفكرة الأساسية للكتاب

والآن وقد أوشكنا على أن نضع القلم بعد ما كشفنا من خيال المؤلف، وأحكامه الجزافية، نتساءل بعض الأسئلة الحاسمة، بشأن تصورات وخيالات صاحب كتاب «أبي آدم» حول المشروع البشري (المزعوم) ومراحل تطوره، التي أسماها (التسوية)، وما استغرقته من ملايين السنين، قد تصل إلى تسعة - زعم - :

١ - لماذا أخفى الله تعالى عِلم هذه المرحلة البشرية المتطاولة، أو (المشروع البشري البطيء لخلق الإنسان) ولم يأت بيان لها في القرآن الكريم، أو على لسان رسولِه محمدٍ ﷺ في حديث شريف، مع أنها - فيما زعم المؤلف - مرحلة تحضيرية لخلق الإنسان، استمرت من طور إلى طور، ومن تهذيب إلى تعديل .. إلى تكميل وتجميل ؟!!

٢ - وهل هذه المرحلة البشرية بأطوارها (المزعومة) أطول، أم مرحلة

خلق الإنسان جنينا في رحم أمه ؟

إن مرحلة خلق الجنين منذ أن يكون نطفة، حتى يخرج طفلا إلى الحياة؛ مدّتها دون العشرة أشهر ـ كما هو معلوم ـ، ومع هذا فقد أخبرنا الله تعالى عنها من خلال وحيه إلى رسولِه محمدٍ ﷺ في القرآن والسنة بتفاصيلها، وورودِ الحديثِ عنها في أكثر من موضع، وفي غير مناسبة في كتاب الله تعالى وسنة النبيِّ الأمين ﷺ.

أليس قد كان أولى أن يحدِّثنا القرآن أو أن تذْكُر لنا السُّنّة شيئا عن هذه المرحلة (التحضيرية) التي زعمها مؤلف كتاب «أبي آدم»، أو عن أطوار ذلك المشروع البطيء الطويل، ولو على سبيل الإجمال، مثل ما جاء الحديث عن أطوار الجنين ؟!!

٣ ـ ثم إن الله عز وجل قد قص علينا كثيرا من أنباء الرسل السابقين، وأحوال الأمم الغابرة منذ آدم إلى ما قبل محمد عليهما الصلاة والسلام.

وكذلك أخبرنا المولى تبارك وتعالى بأنباء عظيمة، وذكر لنا أمورا كثيرة عن عوالم مختلفة، كعالم الملائكة، وعالم الجن، بل والطير، والجبال، والبحار، والسحاب، والنبات ... إلخ.

كما أخبرنا الله تعالى بخلق السماوات والأرض، وبعض تفاصيل هذا الخلق، حيث قال سبحانه: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ * ثُمَّ

اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [سورة فصلت: ٩ – ١٢].

إذا كان قد حصل الاهتمام في القرآن الكريم بمثل تلك الأمور التي أشرنا إليها؛ فلماذا لم يقص الله علينا جانبا ـ ولو يسيرا ـ عن (المرحلة البشرية) التي يحدِّثنا عنها المؤلف، والتي كانت ـ حسب زعمه ـ قبل التاريخ بتاريخ ؟!!

أم أن الله تعالى قد حدَّثنا عنها في القرآن والسنة، لكن الأمة الإسلامية كلَّها قد ضلَّت الطريق لمعرفة خبرها، وما ورد بشأنها في القرآن والسنة، حتى جاء صاحب كتاب «أبي آدم» في القرن الخامس عشر الهجريِّ بمفتاح السر، فأزاح الستار، وكشف ما خفي عن الأمة منذ عصر الصحابة إلى يومنا هذا، وجاء لنا بهذا (السيناريو البشريّ)، ولْيسمح لنا أن نستعير عبارته هذه (السيناريو) التي تهكّم بها على روايات صحيحة ثابتة عن النبي ﷺ ؟!!

٤ ـ ثم لماذا أخّر الله تسويةَ البشرِ وطال أمدُها كلَّ تلك الملايين مِن السنين، التي تخيّلها المؤلف، وزعم أنها حقيقة ؟!!

لماذا خلق الله البشر بلا سمع ولا بصر، ولا عقل، ولا تكليف، ولا إدراك؛ عماءً في عماء، وظلاما في ظلاما، وأخضعهم الله ـ فيما زعم المؤلف ـ

للتسوية والتكميل والتعديل لملايين السنين، حيث كانوا بمثابة المشروع الإلهيّ ـ تعالى الله ـ لإنتاج الإنسان ـ حسب أسطورة صاحب كتاب «أبي آدم» ؟!!

أَكان هذا لِعَجْزٍ فيه جلَّ وعَلا وتقدَّسَ عن النقص والعجز ؟!!

لماذا تركهم الله هكذا يتآكلون ويتفارسون، أي يأكل بعضهم بعضا ـ كما قال المؤلف بالنص ـ، يعيشون كالحيوانات؛ لا توجد قيود في الاتصال الجنسي بينهم ـ كما زعم ـ، وإذا مات أحدهم تُركت جثته في العراء حتى تَبْلَى على هذا الوضع، أو تأكلَها الضواريّ .. كل هذا يحدث لملايين السنين مع أنهم لا يَعْدُون ـ في خيال المؤلف ـ كوْنَهم مشروعا ومرحلة تحضيرية لخلق الإنسان ؟!!

إن هذا لا يتمشى مع ما أخبرنا به القرآن، وما يعتقده سائر المسلمين من أن الله عز وجل قادر حكيم، منزَّه عن العجز والعبث، وأَمْرُه بين الكاف والنون.

إنه بهذه الخيالات يضيف إلى الله العجز .. والعبث، والله جل وعلا منزَّه عنهما، وعن كل نقص.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [سورة يس: ٨٢].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [سورة آل عمران: ٥٩].

وقال جل شأنه : ﴿سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [سورة مريم: ٣٥].

وقال عز من قائل: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [سورة البقرة: ١١٧].

وقال تعالى: ﴿وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة البقرة: ٢٦٠].

٥ ـ وبالإضافة إلى ما سبق من التساؤلات نقول: إذا كان الله عز وجل أخبرنا بأنّ خلْق السماوات والأرض ـ وهو لا شك أكبر من خلق البشر ـ قد تم في ستة أيام؛ فلماذا استغرق المشروع البشريّ (المزعوم) «بضعة ملايين من السنين» ـ بحسب تخمين وزعم صاحب أسطورة «أبي آدم» ـ ؟!!

قال الله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة غافر: ٥٧].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [سورة ق: ٣٨].

أيستغرق خلْقُ السماوات والأرض وما بينهما ستة أيام ـ كما أخبرنا الله ـ، بينما يستغرق مشروع خلق الإنسان والتحضير له بالمرحلة البشرية (مجرد تحضير) بضعة ملايين من السنين ـ كما زعم المؤلف ـ ؟!!

إنّ الحقَّ أنّ ما ذهب إليه المؤلف لا ينسجم مع العقل، ولا مع المنطق، فضلا عن أنه أبعد ما يكون عن معطيات الشرع، مع أنه زعَم أن السبب في تأليف كتابه أنْ يقدِّم تفسيرا لقصة الخلق يتمشى مع العقل، بعيدا عن

المذهب التقليدي السائد !!

فلْيُتأمَّل !!

فكرة كتاب « أبي آدم » قول على الله بغير علم

إن كتاب «أبي آدم» وخاصة فكرَتَه الأساسية التي أثبتنا بطلانها فيما مضى من البحث؛ هي إخبار بأمور حصلت في عالم الغيب، وبعضها كان في الملأ الأعلى، حيث إن المؤلف نسج من خياله صورة لنوع من الخلق أسماهم (البشر)، وأخبر بكثير مما زعم أنه كان من أمرهم؛ أوصافهم، وطرائق عيشهم، بل وحال موتهم، ومدة مكثهم على ظهر الأرض، إلى أن كانت نهايتهم المأساوية، حيث زعم أن الله أبادهم وأفناهم ليخلي الساحة منهم لآدم وبنيه.

وأخبر عن أمور تتعلق بخلق آدم، والسجود له، وكلام إبليس مع الله، وأتى في هذا كله بأخبار من عند نفسه، وقد مضى ذكر كثير مما تخيله .. وافترضه .. وحسِبه .. وما رأى أنه لا مانع منه .. [١٤٠] في بحثنا هذا، وبيّنّا ما ينطوي عليه من مجازفة، ونستطيع القول بأنه ما ترك شيئا يمكن أن يخطر على البال أو لا يخطر بشأن قصة خلق آدم وما تضمّنتْه من وقائع وأحداث إلا ونسج منه تصورا أو افتراضا، أو رأيا لا سند له ولا دليل.

حتى الجنة التي أسكنها الله آدم وزوْجَه؛ لم يَفُتْه أن يكون له فيها

140 ـ لقد أكثر المؤلف في كتابه من قول: نتصور .. نحسب .. ولا مانع لدينا، نفترض، وليس يبعد ...!!

افتراض !!

إنه يرى أن الجنة كانت بمثابة (عَزْل) لآدم وحواء؛ السلالة الجديدة المنتقاة من البشر الهمج، حتى تحين نهايتهم، ويُفنيَهم الله.

وفي هذا يقول: «وليس يبعد أن نفترض أن الخالق سبحانه ـ وقد مضت مشيئته بتفرد آدم وذريته بالسيادة على الأرض، والنهوض بأمر الدين، وإقامة التكاليف، وفي مقدمتها التوحيد ـ قدَّر سبحانه فناء كل البشر، من غير ولد آدم، وذلك بعد عزل السلالة الجديدة المنتقاة في الجنة، حتى تتم إبادة جماعات الهمج البشرية، لتبدأ بعد ذلك الملحمة الإنسانية بطليعتها المصطفاة: آدم وحواء» [١٤١].

إن هذا الذي تضمّنه كتاب «أبي آدم» خاصة ما حكاه المؤلف عن (البشر)؛ كله إخبارات عن الله ـ قصد المؤلف أم لم يقصد ـ لأنه يُسْند فعلَ أمورٍ إلى الله، ويروي أحداثا ووقائع محددة يزعم أنها حصلت، وجميعها من الغيب الذي لم يُطلعنا الله عليه، ولا أخبرنا به عن طريق ملَكٍ مقرَّب، أو نبيٍّ مُرسَل، ولا جاء في كتاب مُنَزَّل، وقد قال سبحانه : ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ﴾ [سورة النمل: ٦٥].

فمِن أين له أن يخبر بما أخبر به عن مرحلة ما قبل آدم عليه السلام، ويجزمَ بأنه كان هناك خَلْقٌ اسمهم (البشر)، عاشوا لملايين السنين أهماجاً غُشَماءَ، بدون تكليف، حتى أفناهم الله عن بكرة أبيهم ، وأباد خضراءهم

141 ـ أبي آدم، ص ١٠٥.

من أجل سواد عيون آدم ؟!!

وهو في كل ما زعم لم يقدِّم آية واحدة ولا حديثا واحدا عن المعصوم ﷺ يؤيده فيما أتى به، بل جميع كلامه خروجٌ على مفهوم النصوص ومنطوقها، وتأويلاتٌ فاسدة لآيات القرآن الكريم، وتحميل لها ما لا تحتمله لغة ولا شرعا.

إننا لا نجافي الحقيقة، ولا نتجنّى على صاحب كتاب «أبي آدم» إذا قررنا بأن ذلك الذي تخيله إنما هو من قبيل الكذب على الله، والقول على الله بغير علم.

وقد قال رب العزة والجلال: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة الأعراف: ٣٣].

ولا يقولن صاحب كتاب «أبي آدم» بأنه مجتهد ..

إذ الاجتهاد لا مجال له أمام الآيات القرآنية الصريحة، والأحاديث النبوية الصحيحة ..

وبعد هذا فإن للاجتهاد ـ في دائرته ـ مُسوِّغات، وضوابط، وأهدافا.

فمن شاء فليجتهد .. وإلا فليسكت ..

وعَمَلُه هذا لم تكن له مسوِّغات معتبرة .. ولا ضوابط مرعية .. ولم تترتب عليه مصلحة دنيوية ولا أخروية ..

الخاتمة

تبين لنا من خلال هذه الدراسة التي توقّفْنا فيها مع كتاب «أبي آدم» حقيقةَ الفكرةِ التي تبناها مؤلّفُه، وتأكّد لنا بما لا يدع مجالا للشك أنها فكرة خيالية، لا تمتّ إلى واقع الحقيقة بصلة، كما ثبت كذلك أنها عارية من الأدلة، وقد كشفت الدراسة عن أن صاحب كتاب «أبي آدم» كان مجافيا للمنهج العلميّ في معالجته لفكرته التي تشبّع بها، وحاول جاهدا أن يُخضِع آيات القرآن الكريم لفكرته من خلال التعسف في تأويلها، وتحميلها ما لا تحتمله لغة ولا شرعا، وبنى أحكامه على التصورات والافتراضات والظنون، فجاءت أحكاما جزافية مبنية على الهوى والمزاج الشخصيِّ لصاحبها، كما كشفت الدراسة عن شذوذ المؤلف وخروجه بفكرته عن إجماع الأمة الإسلامية كلِّها، ووقوفِه وحده في جهة مقابلة لأولي العلم كافة، وأظهرت الدراسة خطأ ما جاء به المؤلف في ميزان القرآن والسنة، وفي ضوء مقاييس وضوابط اللغة العربية.

هذا؛ ولقد تابعتُ خلال هذا الصيف بعض البرامج في بعض القنوات الفضائية، ظهر فيها الدكتور «عبد الصبور شاهين» في أحاديث حول كتابه «أبي آدم»، وكانت هناك بعض الفضائيات أشبه ما تكون متبنية أو منحازة لفكرته، حيث استضافته أكثر مِن مرة منفردا، يتكلم هو وحده في البرنامج، دون وجود أحد يعارضه الرأي، أو يعكر عليه خيالَه وإعجابَه بنفسه، وفي كل هذا لم يقدِّم المؤلف دليلا جديدا غير ما ذكر، ولم

يَـزِدْ عـما في كتابـه شـيئا، اللهـم إلا التمويـه، وأحيانـا التهـرب مـن طـرح تفاصيل فكرته الخيالية بشأن مشروعه البشريّ (المزعوم)، ويَقْضِي الحَلقةَ كلَّهـا في التعـالم، والتلاعـب بقواعـد اللغـة العربيـة وأدواتهـا النحويـة، والإطراءِ على ذاته المصونةِ بتذكير القارئ بأنه (لغويٌّ)، وأحيانا التعريضِ بمخالفيه، والادعاءِ بأنه لم يجد ردًّا على كتابه (إشارة إلى التحقير من شـأن مَن ردُّوا عليه) ... وهكذا !!

مع أنه في بعض البرامج الفضائية كلّمه الأستاذ الـدكتور «محمـد سيد أحمد المسيَّر» مباشرة ـ كما شاهدْتها بنفسي ـ، وقال له: «إنه ـ مع احترمه لـه ـ يرى أن فكرته بـشأن التفريـق بـين (البـشر) و (الإنـسان) هـي مـن خيـال الشعراء» !!

وفي مناظرة بينه وبين العالم الكبير الأسـتاذ الـدكتور «زغلـول النجـار»[١٤٢]؛ أكـد لـه الـدكتور زغلـول ـ وهـو أحـد أبـرز المتخصـصين في علـم الجيولوجيا في العالم ـ خطأ فكرته علميا، فضلا عن خطئها شرعا، وأن مـا أورده من نظريات وصور في كتابـه غـير صـحيحة بـالمرة، وأنهـا أقـوال لا ترقـى لأن تكـون حقـائق علميـة بحـال مـن الأحـوال، وأن هـذه الفكـرة المطروحة من قبل صاحب كتاب «أبي آدم» لا تفيد الناس في شيء ..

ومن قبلُ رَدّ عليه الأستاذ الدكتور «عبد العظيم المطعني»، في كتـاب

142 ـ جرت هذه المناظرة وأذيعت على قناة الـ mbc الفضائية، يـوم الأحـد ١٥ مـن أغـسطس ٢٠٠٤م.

أسماه : «أبي آدم .. قصة الخليقة بين التأويل الجامح والخيال المرفوض»، وهو ردٌّ قويٌّ في مضمونه ومنهجه، وقد أحصى على صاحب كتاب «أبي آدم» أخطاء علمية كثيرة، وخاصة أخطاءً في اللغة والنحو [١٤٣]،

143 ـ من الأخطاء النحوية التي سجلها الدكتور «المطعني» على الدكتور «شاهين»؛ نذكر هذا الخطأ ـ على سبيل المثال ـ:

نقل الدكتور «المطعني» العبارة التالية عن الدكتور «شاهين»: «ونصُّ إعلام الله للملائكة يأتي هكذا (إني خالق بشرا من طين) [سورة ص: ٧١]، واستخدام الصيغة (خالق) هنا يفيد الإحداث .. أي: الإيجاد من عدم، والسؤال هو: هل هذه الصيغة في موقعها تفيد المضي، أو المستقبل؟ ونرى أنها تفيد المضي، أي أن الله كان قد خلق هذا البشر قبل الإعلام به، وقد أراد أن يُخبر الملائكة تهيئة لهم، حتى يتابعوا أحوال المخلوق، خلال مراحل التسوية، والنفخ الإلهي كيما يقعوا له ساجدين كما أمر الله، ولعل ذلك الخلق داخل في الأمر الأزلي (الخالق) (كن)، وهو أمر لم تعرف الملائكة تفاصيله إلا أن يأذن لها الله بذلك» [أبي آدم، ص ٧٠ من الطبعة الثانية].

ثم قال الدكتور «المطعني»: عند أول خطوة خطاها الدكتور شاهين في استنطاق الآيات ليستخرج منها أدلة على فكرته، برزت له هذه الآية عقبة كؤودا في الطريق، فهي بمثابة «مطب» ضخم لا يُستطاع اجتيازه، والعقبة تتمثّل في اسم الفاعل (خالق) وهي واقعة خبرا لاسم «إن» وهو الياء الذي ورد كناية عن اسم الجلالة (الله).

ولاسم الفاعل دلالتان في اللغة العربية، التي نزل بها القرآن، وهما:

(أ) إذا كان اسم الفاعل عاملا عملَ فعله كان معناه الدلالة على الحال أو الاستقبال، وفي هذه الحالة ينصب اسمُ الفاعل المفعولَ الواقع بعده، وهو هنا: (بشرا) .

(ب) إذا لم يعمل اسمُ الفاعل عمل فعله كان معناه المضي لا الحال ولا الاستقبال، وفي هذه الحال يأتي المفعول بعده مجرورا بإضافة اسمِ الفاعل إليه، ويخلو اسم الفاعل من التنوين. والآية التي استشهد بها المؤلف لا تدل على المضي، بل على الحال أو الاستقبال، أو هما معا. والدليل على هذا ما تقدم من أن اسم الفاعل عمِل عمَل فعله المضارع، فمعناه في الآية =

مستشهِدا على كلامه بما قرره أهل العلم، بالإضافة إلى أن الأستاذ الدكتور «عبد العظيم المطعني» لغويّ وبلاغيّ قدير.

وكانت ردود الدكتور «المطعني» من واقع الطبعة الأولى لكتاب «أبي آدم» الصادرة عن دار الروافد الثقافية، وكان مما انتقده مِن كتاب «أبي آدم» كلمةٌ أوردها كثيرا في كتابه، وهي كلمة «مشروع»، مثل قوله: «فقبل التسوية لم يكن المخلوق البشريّ إنسانا، **بل كان مشروع إنسان** في حيِّز الفطرة، قبل أن يكون إنسانا في حيز القوة»، وقوله: «وبذلك اكتمل **مشروع بناء الإنسان**»، ولما صدرت الطبعة الثانية التي اعتمدنا عليها في ردِّنا هذا، حذف الدكتور «عبد الصبور» كلمة «مشروع» تماما من كل موضع أوردها في كتابه ضمن الطبعة الأولى، بل اجتنب ذِكْرَها في أيّ

= «يخلق»، ودلالة المضارع في اللغة إما الحال والاستقبال معا، وإما الاستقبال إذا دل على ذلك قرينة، وفي تقرير هذه القاعدة المطردة قال ابن مالك في ألفيته:

كفِعْله اسمُ فاعلٍ في العمل   إنْ كان عن مُضيّه بمَعْزل

يعني أنّ اسم الفاعل يعمل عمل فعله المضارع إذا كان بمعنى الحال أو الاستقبال، فإذا كان بمعنى الفعل الماضي فلا يعمل، بل يضاف إلى مفعوله ويُجَرُّ مفعوله على الإضافة. هذا موضع إجماع عند النحاة واللغويين.

والآية التي استشهد بها المؤلف معناها أن الله عز وجل أخبر الملائكة أنه سيخلق بشرا بعد زمن التكلم الذي أفاد هذا الإخبار.

والتأويل الفاضح وراء تحريف معنى اسم الفاعل في الآية مِن المضارعية إلى الماضوية. (أبي آدم .. قصة الخليقة بين التأويل الجامح والخيال المرفوض، د. عبد العظيم المطعني، ص ٢٣-٢٦ باختصار).

سياق، ما يدل على أنه اطلع على رد الدكتور «المطعني».

ولما فرغْتُ من كتابي هذا؛ وجدتُ كتابا جديدا في الردِّ على الدكتور «عبد الصبور شاهين» بعنوان: (آدم أبو البشر .. ردٌّ على كتاب الدكتور عبد الصبور شاهين: أبي آدم .. قصة الخليقة بين الأسطورة والحقيقة)، لكاتبه «عبد الله بن حسين الموجان»، عن دار الروافد الثقافية.

كل هذا والدكتور «عبد الصبور شاهين» لا يزداد إلا غرورا، وإعجابا برأيه، وإصرارا على فكرته، وتعريضا بمخالفيه !!

ونحن نقول له في ختام بحثنا هذا: كنا نحن وإياك أحوجَ ما نكون إلى هذا الوقت الذي شُغِلنا فيه بفكرتك التي لا ولن ينبنيَ عليها عمل، وليتك تعود إلى الحق الذي عليه الأمة كلها، في موضوع خلق « آدم» عليه السلام، منذ عصر الوحي إلى يومنا هذا، وأنت تعلم أن الرجوعَ إلى الحق فضيلة ..

ونسأل الله تعالى أن يغفر لنا ولك .. وأن يهديَنا ويُوفِّقَنا جميعا إلى الحق وإلى صراطه المستقيم.

«سُبْحانَكَ اللَّهُمَّ وبِحَمْدِك، أَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا أَنْت، أَسْتَغْفِرُكَ وأَتُوبُ إِلَيْك».

وصلِّ اللهمَّ وسلِّم علَى نبيِّنا محمدٍ وعلَى آله وصحْبِه.

*** *** ***

المراجـع

* القرآن الكريم .. سبحان من أنزله.

١ـ أبي آدم .. قصة الخليقة بين الأسطورة والحقيقة، د. عبد الصبور شاهين، ط الثانية، مؤسسة أخبار اليوم – القاهرة، (بدون تاريخ)، والمُرَجَّح عندي أنها صدرت في صيف العام (٢٠٠٤م).

٢ـ أبي آدم .. قصة الخليقة بين التأويل الجامح والخيال المرفوض، د. عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة – القاهرة، ط الأولى ١٤١٩هـ ١٩٩٩م.

٣ـ الإسرائيليات في التفسير والحديث، د. محمد حسين الذهبي، مكتبة وهبة – القاهرة، ط الثالثة ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.

٤ـ الأشباه والنظائر على مذهب أبي حنيفة النُّعْمان، زين الدين بن إبراهيم بن محمد، المعروف بابن نجيم المصري (المتوفى ٩٧٠هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت،ط الأولى ١٤١٩هـ ١٩٩٩م.

٥ـ الأشباه والنظائر، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى ٩١١هـ)، دار الكتب العلمية، ط الأولى ١٤١١هـ ١٩٩٠م.

٦ـ تفسير القرآن العظيم، الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، دار الغد العربي – القاهرة، ط الأولى ١٤١١هـ ١٩٩١م.

٧ـ تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث، العلامة عبد الرحمن بن علي بن محمد بن عمر الشيباني الشافعي، دار الكتاب العربي – بيروت.

٨ـ تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة لأبي الحسن علي بن عراق الكناني، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، عبد الله محمد الصديق، دار الكتب العلمية - بيروت، ط الثانية ١٤٠١هـ ١٩٨١م.

٩ـ الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاريّ القرطبيّ (المتوفى ٦٧١هـ)، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة، ط الثانية ١٣٨٤هـ ١٩٦٤م.

١٠ـ دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، دار الوفاء - مصر، ط الثالثة ١٤١٣هـ ١٩٩٢م.

١١ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للعلامة السيد محمود الآلوسيِّ البغداديِّ، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

١٢ـ سفر التكوين، مطبوع ضمن الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط.

١٣ـ سنن أبي داود للحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق صدقي محمد جميل، دار الفكر - بيروت ١٤١٤هـ ١٩٩٤م .

١٤ـ سنن الترمذي، الحافظ أبو عيسى محمد بن سورة، تحقيق وتخريج صدقي محمد جميل العطار، وعبد القادر عرفان، دار الفكر - بيروت ١٤١٤هـ ١٩٩٤م .

١٥ـ السنن الكبرى، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط الثالثة ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م.

١٦ـ شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، علي بن محمد بن عيسى، أبو الحسن، نور الدين الأشموني الشافعي (المتوفّى ٩٠٠هـ)، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، ط الأولى ١٤١٩هـ ١٩٩م.

١٧ـ شرح القواعد الفقهية، أحمد بن الشيخ محمد الزرقا، صححه وعلق عليه مصطفى أحمد الزرقا، دار القلم - دمشق، ط الثانية ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م.

١٨ـ صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى ٣٥٤هـ)، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط الثانية ١٤١٤هـ ١٩٩٣م.

١٩ـ صحيح البخاري [الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه]، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، ط الأولى ١٤٢٢هـ.

٢٠ـ صحيح مسلم [المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى ٢٦١هـ)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٢١ـ صفوة البيان لمعاني القرآن، للشيخ حسنين مخلوف، ط وزارة الأوقاف بالكويت.

٢٢ـ علم الحديث، ابن تيمية، تحقيق موسى محمد علي، عالم الكتب

- بيروت، ط الثانية ١٤٠٥هـ ١٩٨٤م.

٢٣ـ القاموس المحيط، الفيروز آبادي، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط الثانية ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

٢٤ـ القواعد الفقهية وتطبيقاتها في المذاهب الأربعة، د. محمد مصطفى الزحيلي، دار الفكر - دمشق، ط الأولى ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م.

٢٥ـ الكشاف عن حقائق التنزيل، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل [تفسير الزمخشري]، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى ٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربي - بيروت، ط الثالثة ١٤٠٧هـ.

٢٦ـ مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مكتبة لبنان - بيروت ١٩٨٨م.

٢٧ـ المستدرك على الصحيحين، للحافظ أبي عبد الله الحاكم النيسابوري، وبذيله التلخيص للحافظ الذهبي، دار المعرفة - بيروت.

٢٨ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى ٢٤١هـ)، تحقيق شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرين، مؤسسة الرسالة، ط الأولى ١٤٢١هـ ٢٠٠١م

٢٩ـ مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبزار (المتوفى ٢٩٢هـ)، تحقيق محفوظ الرحمن زين الله، عادل بن سعد، صبري عبد الخالق الشافعي، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، ط الأولى ١٩٨٨م.

٣٠ـ المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد بن محمد بن علي الفيومي، المكتبة العلمية.

٣١ـ المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ)، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية – القاهرة.

٣٢ـ المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في القاهرة، ط الثالثة.

٣٣ـ معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي (المتوفى ٣٩٥هـ)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م.

٣٤ـ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، الإمام أبو محمد عبد الله بن هشام الأنصاريّ المصريّ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح – القاهرة.

٣٥ـ مفردات ألفاظ القرآن، الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانيّ (المتوفَّى ٥٠٢ هـ)، تحقيق صفوان عدنان داوودي، دار القلم – دمشق، ط الأولى ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.

٣٦ـ المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، الحافظ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، دار الهجرة – بيروت ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.

٣٧ـ مقدمة في أصول التفسير، لابن تيمية، دار الصحابة – مصر.

٣٨ـ الموافقات في أصول الشريعة، أبو إسحاق؛ إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي، دار المعرفة – بيروت، ط الثالثة ١٤١٧هـ ١٩٩٧م.

٣٩. الهداية الكافية الشافية لبيان حقائق الإمام ابن عرفة الوافية [شرح حدود ابن عرفة للرصّاع]، محمد بن قاسم الأنصاري، أبو عبد الله، الرصاع التونسي المالكي (المتوفَّى ٨٩٤هـ)، المكتبة العلمية، ط الأولى ١٣٥٠هـ.

٤٠. الوجيز في إيضاح قواعد الفقة الكلية، د. محمد صدقي بن أحمد آل بورنو، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط الرابعة ١٤١٦هـ ١٩٩٦م.

*** *** ***

فهرس الموضوعات

*** *** ***

المــؤلف



أ.د/ إسماعيل علي محمد علي.

* أستاذ ورئيس قسم الدعوة والثقافة الإسلامية، في كلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة ــ جامعة الأزهر.

* من مواليد عام ١٣٨٥هـــ ١٩٦٥م، في قرية " كفر حماد "، مركز " كفر صقر "، محافظة الشرقية. مصر.

* حفظ القرآن الكريم ــ صغيرا ــ في كُتّاب القرية، ثم التحق بالأزهر الشريف، إلى أن تخرّج من كلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة ــ جامعة الأزهر ــ عام ١٤٠٧هـــ ١٩٨٧م.

* نال درجة الدكتوراه من كلية أصول الدين بالقاهرة ــ جامعة الأزهر عام ١٤١٦هـــ ١٩٩٦م.

* تدرّج في العمل الأكاديمي الجامعي إلى أن حصل على درجة "أستاذ" عام ٢٠٠٥م، ثم رئيسا لقسم الدعوة والثقافة الإسلامية، في كلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة عام ٢٠٠٨م.

* أستاذ في جامعة الأزهر، وفي معاهد إعداد الدعاة بوزارة الأوقاف، والجمعية الشرعية في مصر، كما عمل بالتدريس في كلية الشريعة ــ جامعة الملك خالد ــ السعودية.

* عضو محكّم في اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة والأساتذة المساعدين، في جامعة الأزهر.

* بلغ عدد رسائل الماجستير والدكتوراه والبحوث العلمية المحكّمة، التي أشرف عليها أو ناقشها أو حكّمها حوالي ثلاثين رسالة وبحثا.

* عضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية في مصر.

* زار بعض الدول مثل أمريكا، ولبنان، والإمارات، وتركيا، وإفريقيا، وشارك في أنشطة دعوية وعلمية فيها، كما أنّ له إسهامات من خلال الخطابة والندوات والمؤتمرات، والكتابة في الصحف والمجلات، والمواقع الإلكترونية، والفضائيات.

* صدر له عدد من البحوث والمؤلفات، منها:

١ ــ الغزو الفكري .. التحدي والمواجهة.

٢ ــ مدخل إلى دراسة النظم الإسلامية.

٣ ــ الغزو الفكري في وسائل ثقافة الطفل المسلم .. مظاهره وآثاره.

٤ ــ الاستشراق بين الحقيقة والتضليل .. (مدخل علمي لدراسة الاستشراق).

٥ ــ فن الخطابة ومهارات الخطيب.

٦ ــ مفتريات المستشرقين وعملائهم على الإسلام. [رد على كتاب (محمد واليهود نظرة جديدة)].

٧ ــ آدم .. أبو البشر حقيقة لا أسطورة. [رد على كتاب (أبي آدم قصة الخليقة بين الأسطورة والحقيقة) للدكتور عبد الصبور شاهين].

٨ ــ القدوة وأثرها في الدعوة إلى الله تعالى.

٩ ــ معالم الحياة الراشدة في بلاغ حجة الوداع.

١٠ــ العولمة الثقافية وموقف الإسلام منها.

١١ــ الجذور الفكرية لانحراف الشخصية اليهودية.

١٢ــ الأُخوّة الإسلامية فريضة شرعية وضرورة عصرية.

١٣ ــ فقه الدعوة في ضوء موقف "جعفر بن أبي طالب" أمام "النجاشي".

١٤ ــ صور من حقوق الطفل في الإسلام.

١٥ ــ فن كتابة الثقافة الإسلامية للطفل .

١٦ ــ الضوابط الأخلاقية المتعلقة بحقوق التأليف.



هذا الكتاب

يبين هذا الكتاب بما لا يدع مجالاً للشك أن الفكرة التى تبناها الدكتور عبد الصبور شاهين فى كتابه (أبى آدم) لا تمت إلى واقع الحقيقة بصلة ، وأنها عارية من الأدلة المعتبرة ، وأنه كان مجافياً للمنهج العلمى فى معالجته لفكرته التى تشبع بها ، وأنه بنى كثيراً من أحكامه على التصورات والافتراضات والظنون ، فجاءت أحكامه جزافية مبنية على الهوى والمزاج الشخصى لصاحبها .

كما كشف المؤلف عن شذوذ فكرة عبد الصبور شاهين وخروجها عن إجماع الأمة الإسلامية كلها ، ووقوفه وحده فى جهة مقابلة لأهل العلم كافة ، وأن ما جاء به مخالف للقرآن الكريم والسنة المطهرة وضوابط اللغة العربية .

ويسر دار الكلمة للنشر والتوزيع أن تقدم لقراءها الكرام هذا الكتاب إسهاماً منها فى نشر العلم الصحيح.

والله نسأل أن ينفع به.

الناشر



دار الكلمة للنشر والتوزيع . مصر - المنصورة
٣٨ ش السكة الجديدة ص. ب ١٦٧ ت.ف: ٢٢٤٣١١٥